

دكتور شوقي ضيف

البطولة في الشعر العربي

رئيس التحرير أنيس منصور

الدكتور شوقي ضيف

البطولة في الشعر العربي

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من الموضوعات التي طالما تغنى بها شعراؤنا على مر الزمن بطولة الآباء والأجداد في معاركهم مع الأعداء ، وما سقط من شررها على ألسنتهم وألسنة الشعراء . وقد عدت أدراجي مصعداً في الزمن حتى العصر الجاهلي ، فرأيت الروافد التي صبّت في نهر بطولتنا العظيم ، وهي روافد متعددة منها الحربي الذي يقوم على الاستبسال في القتال ، ومنها النفسي الذي يقوم على احتمال الشدائد والحلم والحزم والأنفة والعزة ، ومنها الخلقي الذي يقوم على صيانة الشرف وعلى الكرم والوفاء بالعهود وحماية الجار . وبذلك تعانقت من قديم بطولة السيف مع بطولة النفس والخلق والطموح إلى المثل الرفيعة من مثل الإباء والأنفة والشعور بالعزة والكرامة والنجدة وإغاثة الملهوفين وإطعام الجائعين .

ثم كان الإسلام فأذكى هذه البطولة بمعانيها الثلاثة ، وأمدها بروحانية مضطرمة ، جعلها تزداد تلظياً واشتعالا . وخرج العرب من جزيرتهم يحملون في يد مشاعل دينهم الحنيف ، وفي اليد الثانية سيوفهم ومن تحتهم خيولهم تصهل ملوحة بأعرافها ، وعزيمتهم تطوى لهم المسافات المغرقة في البعد طيّاً ، يريدون أن ينشروا الإسلام في أطباق الأرض ، مرخصين مهجهم وأرواحهم في سبيل نشره . وتقتسم جموعهم العالم ،

فقسم يتجه تلقاء فارس ، وقسم يتجه تلقاء الشام ، ثم يتجه قسم تلقاء مصر ، وتندحر جيوش الروم والفرس . ويصبح العالم ملك أيديهم يثبتون فيه ويمحون . ويتبعون الروم إلى البحر ، ويصبح فرسان الصحراء فرسان الدأماء ، ويمخر أسطولهم البحر المتوسط وترتعد منه فرائص الأعداء .

ويمتد السيل الكاسح شرقاً حتى أواسط الهند وأبواب الصين ، ويمتد غرباً حتى مشارف البرانس ، وتدين للعرب الرقاب فى المشارق والمغارب ، تدين لجهادهم وبسالتهم وبطولاتهم الخارقة . ويحتمى الروم منهم بحائط آسيا الصغرى وقلوبهم تمتلئ بالفزع والرعب ، وأبطال العرب من مثل سيف الدولة يجرعونهم الغصص ويفتكون بهم فى الحروب فتكاً ذريعاً . وينزل الصليبيون فى الشام والموصل ، وتتعقبهم أمداد لا تكاد تحصى ، ويظنون ظنّاً قاتلا أنهم سيقيمون إلى الأبد ، ويخيب ظنهم وفألهم إذ ينهض لهم نور الدين وصلاح الدين وبيبرس وأندادهم من الأبطال العظام فيحطمونهم حطماً ، ويستحيل الشام بركاً من دمائهم ، وتعود بقاياهم محملة بالخزى والعار . وسرعان ما يتبعهم التتار مهزومين مدحورين .

ويستقبل العرب العصر الحديث والدولة العثمانية توشك أن تنهار فتستصرخهم وينجدونها فى بعض حروبها مع الدول البلقانية وفى كريت . وتقتسم الدول الاستعمارية ديارنا ، وتحتدم فى كل دار معركة من معارك التحرير ، يخوض النضال فيها الشعوب وفى مقدمتهم أبطال يزلزلون المستعمرين زلزالا شديداً ، ومايزالون يُنْزِلون بهم ضربات قاصمة

حتى يستسلموا خانعين ، وتسترد ديارنا حرياتها واستقلالها . غير أن خبثهم أداهم إلى أن يُبقوا من ورائهم إسرائيل لتكون لهم نقطة ارتكاز ، وحتى تكون إسفيناً يفصل بين البلاد العربية فلا تتم لها وحدة ، وليحطموا عن طريقها قدراتها الاقتصادية كلما رأوها تنهض على قدميها .

ولن يفتّ في عضدنا ما حدث في حرب يونيه ، ولن يفقدنا ثقتنا بأنفسنا ، بل إنه سيشدّ من عزائمنا لنسترد كرامتنا وشرفنا الحربي ، ولننقذ بقعة غالية مقدسة من وطننا اغتصبتها ظلماً وعدواناً عصابات باغية . ومن أكبر الدلائل على أن هذا الأمل المعقود سيتحقق عن قريب انبعاث الفدائيين الفلسطينيين للأخذ بالثأر ، ثأر المذبوحين في دير ياسين وكفر قاسم ، والمحبوسين بالمئات في سجون التعذيب ، واللاجئين المشردين الذين نُهبت بصورة وحشية أراضيهم وبيوتهم وثمارهم وكرومهم ، ولم يبق لهم سوى اعتصار الصخور . ولابد للذئاب من أن تنهزم ، ولابد لليوث من أن تنتصر ، ولابد للظلام الداجي من أن ينحسر ، ولابد للصباح المضيء من أن ينبثق وتعم أنواره .

القاهرة في أول يونيه سنة ١٩٧٠ م .

شوقي ضيف

معنى البطولة

البطولة فى اللغة الغلبة على الأقران ، وهى غلبة يرتفع بها البطل عمن حوله من الناس العاديين ارتفاعاً يملأ نفوسهم له إجلالا وإكباراً ، وقديماً كان البطل فى القبيلة وفى عهود الحياة الأولى للأمم يعد شخصاً مقدساً ، بل لقد كانوا يظنونه أحياناً من سلالة الآلهة ، وكأنه هبة تهبها لهم ، حتى لا يقعوا فريسة لمن سواهم ، وحتى لا يسقطوا فى مهاوى لا قرار لها من الاضمحلال والفناء . وعلى نحو ما كانوا يقفون أمام خوارق الطبيعة مشدوهين حائرين شاعرين كأنما تحوطها هالة سحرية ، كانوا يقفون أمام البطل مذهولين كأنما يستتر فى طواياه قوى خفية ، وهى قوى مكنت له فى رأيهم من الإتيان بالخوارق فى البسالة وقتال أعدائهم ، وهى خوارق لا تقف عند نجاته من القتل بل تمتد إلى نجاتهم معه نجاة جعلتهم يشعرون بقوة أنه هو الذى يهبهم الحياة . ومن أجل ذلك عبدوه أحياناً ، وخاصة فى عهود الإنسانية الأولى ، حتى ليطلق على بعض فتراتها فترة عبادة الأبطال ، حين كانوا يتراءون لمن حولهم رموزاً لقوى خفية غيبية مجهولة ، أو بعبارة أخرى رموزاً لأشياء إلهية مقدسة ، بل كأنما الآلهة هى التى أنجبتهم لحماية من حولهم بما يأتون من معجزات القوة والشجاعة ، وهى معجزات دفعت الناس إلى عبادتهم أحيانا كأنهم حقاً آلهة بيدهم حياتهم وكل ما يحفظها عليهم من أسباب الرزق والبقاء .

ويتضح هذا العصر فى تاريخ اليونان القديم ، حين مضت تباشير هذا التاريخ تتبلج فى أفق حياتهم المظلم الكثيف منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد حتى القرن التاسع . وفى هذا الزمن السحيق كان يحكمهم ملوك آمنوا بأنهم من سلالة الآلهة ، لما امتازوا به من بطولة نادرة ومن بأس عات شديد . وقد نسجوا حولهم كثيراً من الأساطير المغرقة فى الخيال ، غير فارقين بينهم وبين آلهتهم فى صور الحياة والأحداث وما يتزلونه على الناس من صواعق الموت الذى لا يبقى ولا يذر ، بل لقد كانوا يخلطون آلهتهم بهم اختلاطاً يجعل لهم نفس النوازع البشرية وكأنما طبيعتهم هى نفس طبيعتهم الإنسانية بكل عواطفها فى الحب وغير الحب وبكل أهوائها وضروب سلوكها وكل أحقادها وصنوف خصوماتها . وبذلك وضعوا الآلهة والأبطال فى مرتبة واحدة ، سواء فى السلم أو فى الحرب والقتال ، إذ كانوا يقتتلون معهم ، وتارة يمدونهم بالنصر ، وتارة يتخلون عنهم فيذوقون الموت أو يذوقون الذل والهوان .

وأخذت تتكون فى هذه الفترة المتعمقة فى القدم أساطير كثيرة فى مخيلة اليونان عن أبطالهم وآلهتهم ، لم يلبثوا أن رتلوا فيها أناشيد شعرية وأخذت هذه الأناشيد — كما أخذت هذه الأساطير — تتضخم ، ولا نصل إلى القرن العاشر قبل الميلاد حتى نجد هوميروس يسوى منها قصيدتيه القصصيتين الطويلتين « الإلياذة » و« الأوديسا » ونكتفى بالوقوف قليلاعند أولاهما لتستبين لنا شخصية هذا الشعر القصصى القديم ، وكيف كان يقوم على تصوير مغامرات بعض الأبطال اليونانيين وما يتصل بتلك المغامرات من أحداث الحروب ومن الأساطير .

والقصيدة تتألف من نحو خمسة عشر ألفاً من الأبيات ، وهى تصف أحداث الأسابيع الأخيرة من حرب اليونان مع أهل طروادة فى آسيا الصغرى لمدة عشر سنوات كانت الحرب فيها سجالا بين الفريقين ،وتقول أساطيرهم إن بارس بن بريام ملك طروادة حكم للإلهة « أفروديت » بأنها أكثر جمالا وفتنة من زميلتيها « هيرا » و« أثينا » مما جعلهما تتميزان غيظاً منه ، فى حين رأت أفروديت أن تجزيه جزاء حسناً فوعدته الاقتران بهيلين الفاتنة زوجة منيلاوس ملك إسبرطة . وأبحر بارس إلى اليونان ونزل ضيفاً على الملك ، ولم يلبث أن أغرى زوجه بالفرار معه إلى بلاده ، وفرت راضية . وبدأت محنة الحرب ، إذ استصرخ الملك أخاه أجا ممنون وأبطال اليونان من أمثال أخيل ، فلبوه غاضبين ، ولبته جموع كثيرة عبرت البحر فى مقدمتها قائدها أجا ممنون يحمل لواء قومه . وما إن علم الطرواديون حتى استنجدوا بأمراء آسيا الصغرى وجاءوهم من كل حدب ينسلون ، وأجمع رأيهم على أن يكون قائدهم ابن بريام الأكبر « هكتور» البطل المغوار زوج أندروماك . والتقت الفئتان وانقسمت الآلهة بين المعسكرين المتحاربين ، وكان طبيعياً أن تنصر اليونان هيراوأثينا ، وأن تنصر الطرواديين أفروديت ، ووقف زيس كبير الآلهة على الحياد . وظلت الحرب مشتعلة نحو عشر سنوات كما أسلفنا ، ثم يحدث خلاف بين أجا ممنون وأخيل . ومن هنا تبدأ قصة الإلياذة ، إذ اتخذ هوميروس من هذا الخلاف الأصل الذى تفرعت عنه أحداث الأسابيع الأخيرة ، فقد غضب أخيل من أجا ممنون وامتلأ قلبه غيظاً وموجدة لاغتصابه فتاته « بريسيس » التى سباها فى

بعض معاركه ، وقفل راجعاً إلى سفينته ، واعتزل الحرب وقومه ، وكانت أمه ثيتس من عرائس البحر ، فجاءته تسأله ما الخبر ، فروى لها صنيع أجا ممنون معه ، وطلب إليها أن تصبّ عليه غضبها ، وأن تستعين عليه بالآلهة ، وتجأر إلى زيس . ويحتدم القتال بين اليونان والطرواديين وينكل بهم الأخيرون ، ويقتلون نفراً من أبطالهم العظام ، يقتلهم هكتور ، وفي مقدمتهم باتروكلوس صديق أخيل وصنو نفسه ويفزع اليونانيون إلى أخيل ، ويرد إليه أجا ممنون فتاته ، وتأتيه أمه بدرع نسجته له بعض الآلهة ، وينزل حومة القتال ، ويلتقى بهكتور ، فتدور عليه الدوائر ، بينما زوجته وأبواه يعولان بالنشيج والدموع الغزار . ويسترد الطرواديون جثة بطلهم لقاء فدية كبيرة لأخيل ، ويودعونه بجنازة رهيبة يحف بها النحيب والعويل . وبذلك تنتهي الإلياذة .

وواضح أن البطولة فى الإلياذة بطولة أسطورية تتصل بأبطال وآلهة أسطوريين ، وليس بيدنا عن العصور العربية القديمة شيء من هذه البطولة التى تتشابك فيها الوشائج بين الأبطال والآلهة ، وكأنما قد اجتاز العرب فى أقدم عصورهم التاريخية —وأقصد العصر الجاهلى— هذا الدور الفطرى ، الذى يشترك فيه الأبطال والآلهة فى أحداث الحروب . ولعل هذا هو السبب الحقيقى فى أن العرب لم ينظموا القصائد القصصية الطويلة ، وبعبارة أخرى لم يعرفوا الشعر القصصى الذى تطول قصائده طولا مسرفاً ويشيع فيها التسلسل القصصى الدقيق ، وكأننا بإزاء قصة كاملة غير أنها نُظمت شعراً . ولابد أن نشير هنا إلى أن اليونان سجلوا البطولة فى صورة شعرية أخرى هى صورة الشعر التمثيلى الذى

يكتب للمسرح والذى تصوّر فيه مآسى الأبطال . وقد درس أرسطو المأساة دراسة نقدية عميقة ملاحظاً أنه لكى تحدث مأساة البطل لابد أن يكون به ضرب من ضروب النقص يهيئه لمأساته ، لأنها لا تهبط عليه من السماء بل تنزل به نزولا طبيعياً، وكأنها مصيره الذى يفضى إلى دماره . ولم يعرف العرب هذا النوع من البطولة المسرحية ، لسبب طبيعى ، هو أنهم لم يعرفوا قديماً المسرح وما يعتمد عليه من حوار بين الممثلين وقصة تتلاحق فيها الحركة والمشاهد والمناظر المختلفة.

ومعنى ذلك أن العرب لم يعرفوا قديماً البطولة المسرحية ولا البطولة الأسطورية ، وإنما عرفوا البطولة الواقعية، بطولة يرتفع فيها صاحبها عن الأشخاص العاديين من حوله بقوته وبسالته وإقدامه وجرأته وتغلبه على أقرانه ، وهو منهم، من ذات أنفسهم لا من سلالة الآلهة ، وأنصاف الآلهة ، بشرٌ سوىّ لا يعلو على الحدود البشرية الإنسانية، وبطولته لذلك تتفجر من وجوده الإنسانى البشرى لا من ينابيع إلهية أو سحرية غيبية ، بطولة إنسانية لا تتشح بقوى خفية ، بل تستمد من الواقع وحقائقه لا من الخيال وخوارقه، وهى بطولة تستند على قوة الجسد والبأس الشديد، بأساً يدفع غائلة الوحش والقبائل المجاورة بكل ما استطاع البطل العربى القديم فى صحرائه من اتخاذه عدة له فى القتال ، عدة ليس فيها ما صنعته الآلهة له كى تعينه على النصر ، بل كلها من صنع الإنسان ، سواء الدرع أو السيف أو الرمح أو القوس والسهام . وبالمثل الخيل التى يصول ويجول عليها الفرسان وهى تصهل من تحتهم ليست خيلا من السماء ، بل هى خيل من الواقع ، تربت فى

أحضان الصحراء ، بل تربت فى أحضان الأبطال ، حتى ليحس كل منهم أن فرسه بضعة من نفسه ، بل لكأنها جزء لا يتجزأ من نسبه فى آبائه وقبيلته أو عشيرته فهو فارس الشهباء أو البيضاء أو الورد ، ولعلهم لذلك اهتموا بأنسابها اهتمامهم بأنسابهم دلالة على الأصالة والنفاسة ، وكأنها فصلت من ذات نفوسهم وقلوبهم وتاريخهم وحياتهم .

ولم يقف العرب قديماً ببطولتهم عند جانبها الحربى ، فقد اتسعوا بمعناها حتى شملت البطولة النفسية ، وهى بطولة أدت إلى كثير من الشمائل الرفيعة . من ذلك الحلم وهو فى واقعه تغلب على ثورة الغضب ، أو قل هو تغلب بطولى على النزق والطيش . ومن ذلك الصبر على الشدائد ، وهو بدوره تغلب على الهلع والفزع إزاء المصاعب واقتحام المعاطب ، وما قد ينزل من الخطوب والنوائب ، والبطل لذلك لا يشكو ، بل يتجرع الغصص فى صمت محتملا إياها أقوى احتمال . ومن ذلك الحزم وهو بدوره تغلب على التردد فى الرأى قبل أن تفلت فرصته من يد الشخص ، فهو يسلك الوجه الذى يجب أن يسلك ، لا يفوته تدبيره فى التو والساعة . ومن ذلك الكرامة ، وهى بدورها تغلب على صغار النفس وشهواتها الوضيعة وانحراف عن الغايات الدنيا إلى الغايات السامية العليا فى إباء وشمم وأنفة وعزة ، وأى ضيم وأى هوان دونهما الموت الزؤام .

وتمتزج هذه البطولة النفسية وأختها الحربية عند القدماء ببطولة خلقية ، أسبغت عليهم القوة إزاء غرائزهم ، حتى ليخيل إلينا كأن العربى فى صحرائه وجاهليته مع ما أوتى من الشجاعة التى تتيح له تحقيق مآربه كان يعمل جاهداً على قهر تلك الغرائز ، بل لكأنما

كان يجد لذته فى قهرها ، فإذا هو يعفّ عفة عن كل متاع مادى ، حتى فى الحرب وعند المغانم وجمع الأسلاب . ومن هنا نحس أنه كان يسعى فى قوة إلى طائفة من المثل الخلقية العليا ، ولم يكن مثَل يعنيه كمثل الشرف ، فهو يحافظ على حقوقه وهى حقوق تمتد فى بعض جوانبها ؛ فتصبح واجبات اجتماعية وبطولية ، وخاصة حين تتعرض قبيلته لعدوان من قبيلة مجاورة ، وإنه لينقلب ، حين تسبى بعض نساء عشيرته ، فظاً معتدياً لا يشفيه من أعدائه إلا سفك الدماء ، فكل شىء إلا عار سباء النساء ، وكل شىء إلا انتهاك العرض وحرماته ، إذ يصبح أسداً كاسراً كل لذته افتراس الأعداء الذين امتهنوا حِماه وداسوا مدارج عزه وشرفه . ومثل أعلى رفيع آخر آتى ثماراً كثيرة ، هو مثل الكرم الذى سند بطولة الجاهليين ودعمها دعماً ، فقد نبتت جذوره فى أعماق التغلب على شح النفس ، ولم تلبث غصونه أن ارتفعت وانتشرت لا فى سماء العشيرة أو القبيلة وحدها ، بل فى سماء الجزيرة كلها : فإذا الكريم يشبع الجائع من قومه ، ويقرى الضيف أى ضيف حتى لو كان من خصومه . وتلتقى مع شجرة الكرم فروع وغصون كثيرة ، إذ يفرّج البطل الكريم غمة كل مكروب . وإذا كان قد حمى الجائعين من كربة الجوع فأولى أن يحميهم من كُرب التشرد فى متاهات الصحراء حتى لو نبذتهم قبائلهم لبعض الجنايات ، وخاصة حين يلجأون إليه مستجيرين فإنه يلحقهم بعشيرته ، وتصبح لهم نفس حقوق أبنائها ، عهد لابد أن يوفوا به مهما ضحوا فى سبيله . وكانوا يجلون الوفاء والحفاظ على العهود إجلالاً لا حدود له .

وعلى هذا النحو عانقت البطولة الحربية عند العرب قبل ظهور الإسلام بطولة خلقية اجتماعية ، جعلت أبطالهم ومن ورائهم عشائرهم وقبائلهم يسعون إلى تحقيق طائفة من المثل العليا ، ويلحون فى السعى ، حتى استقامت لهم شمائلهم ومناقبهم . وبالمثل عانقت بطولتهم الحربية بطولة نفسية جعلتهم يسعون إلى تحقيق طائفة أخرى من تلك المناقب وكانوا يتصايحون بها صياحاً عالياً ، ويتخلل هذا الصياح هتافهم الذى لا ينقطع بالبسالة والشجاعة ومنازلة الأقران وإزهاق نفوسهم وسفك دمائهم . ولكثير من أبطال الجاهلية دواوين تمتلىء بضجيجهم وبيان ما أنزلوا بأعدائهم من الموت الساحق الذى لا يبقى ولا يذر ، كما تمتلىء بمثلهم النفسية والخلقية التى كانوا يحرصون عليها حرصهم على أرواحهم مزدرين الصغائر والشهوات فى سبيل مطامح النفس الكريمة التى تعرض عن النقائص وتمتنع عليها ، وسبيل الحقوق والواجبات القبلية ، وما يتطلبه الشرف والمجد العريض من خصال نبيلة . ولم يتغن الأبطال وحدهم بهذه البطولة وشعبها الثلاث : الحربية والنفسية والخلقية الاجتماعية ، بل تغنى بها ومضى يعظمها ويمجدها الشعراء فى كل حى وكل عشيرة وكل فج من فجاج البوادى ، متخذين من مديحهم لأبطالهم أداة لهذا التمجيد والتعظيم ، وصنعوا نفس الصنيع بمراثيهم ، إذ حولوها ما تم لتأبين أبطالهم وبيان المعانى والمثل الرفيعة التى تجسدت فيهم ، وكأنما يريدون أن يخلدوهم ويحفروا فى ذاكرة معاصريهم والأجيال التالية أن شخوصهم المادية إن كانت قد بليت وفنيت فشخوصهم المعنوية حية باقية إلى أبد الآبدين .

٢

فى الجاهلية

تحوّلت الجزيرة العربية فى الجاهلية إلى ما يشبه ساحة حربية كبيرة تقتتل فيها العشائر والقبائل ، وفى كل جانب يتصايح الأبطال وتُشهر السيوف وتلمع الرماح وتصوّب النبال وتدق الأعناق وتسيل الدماء ، والضباع والذئاب والنسور والعقبان تتخاطف الأشلاء . وقد يرتفع صوت ضئيل نحيل كصوت زهير بن أبى سلمى بالدعوة إلى السلام وأن تضع الحرب أوزارها ، ولا سميع ولا مجيب . فقد أصبح الطعن والقتال والحرب والنزال فريضة الحياة ، وكل يكشر عن أنيابه ممتشقاً حسامه ، يقاتل حتى يُقتل تحت ظلال السيوف قتلة شريفة ، حتى ليعد عندهم سُبّة ما بعدها سبة أن يموت الإنسان على فراشه حتف أنفه ، شأن الجبناء الذين ينكلون عن الحرب ، وما الجبن بمنجيهم من الموت ، فالموت غاية كل إنسان ، وإن استقباله برباطة جأش لخير من استدباره ، بل إن خوض غماره ليمدّ فى أسباب الحياة ، إذ يتدرب المقدام على الطعان حتى إذا حانت لحظة النزال حمى نفسه ، أما الجبان فيموت رعباً قبل أن يموت طعناً بالسنان ، وهل يمكن أن يكون للجبان فى هذا المجتمع الحربى مكان يطمئن إليه ؟ إنه أول من يقتل وأول من ترتعد فرائصه ويهوى صريعاً ، أما الشجاع الجرىء ففى حصن من شجاعته وفى حماية من جرأته ، يستعذب الموت ويسترخص القتل ، وكأنه

يسرع الخطو إليه ، يحدوه إقدام لا يعرف المبالاة ولا الإحجام ، إنما يعرف شق الجباه وطعن النحور وإزهاق النفوس .

وحقاً كانوا عشائر وقبائل راحلة وراء مساقط الغيث ترعى الأنعام والأغنام ، ولكن كأن هذه الرحلات لا تمثل صميم حياتهم ، إنما تمثلها السيوف المُشْرعة والسهام المفوّقة ، وكأنهم كتائب مجهزة ، تقتحم الوقعة تلو الوقعة ، وفي كل وقعة تجمع الأشلاء وتبكى الصرعى من الأبطال الشجعان ، ولاتلبث أن تعود إلى القتال أشد حفيظة ووجداً ، تريد أن تجتث أعداءها من الأرض اجتثاثاً وتستأصلهم استئصالا حتى لا تبقى لهم باقية . وقانون أقاموه بينهم ألا يستصرخ أحد من أبناء العشيرة قومه إلا طاروا إليه بجموعهم دون أناة أو سؤال له عن سبب الصراخ والاستغاثة وهو قانون النجدة ، كل يبادر لنجدته وكل يحمل سلاحه ، بل كل يستل سيفه يريد أن يغمده في صدور أعدائه . ووثّق هذا القانون عندهم وأحكمه قانون كان يقوم عندهم في الحرب مقام المركز من الدائرة ، فعليه تقوم ومنه تصدر ، وإليه ترد ، وهو قانون الأخذ بالثأر ، فمن قتل من عشيرة شخصاً من عشيرة أخرى تبعه هو وعشيرته ثأره ، فلا يُطَلّ دمه ، أو بعبارة أخرى لا يذهب دمه هدراً ، بل لابد أن يثأر له قومه ولابد أن تسفك من أجله الدماء . ويدخل الطرفان المتقابلان في معارك لا تنتهي ، إذ لا يمكن منها الخلاص ، فدائماً مقتولون ، ودائماً معارك طاحنة ، لا يكادون يفرغون من إحداها حتى تنشب معركة جديدة أكثر فتكاً وأشد هولا ، وكأنما أصبح سفك الدماء سُنّة من سننهم ، بل لكأنما أصبح غريزة من غرائزهم ، فهم لا يصبرون عليه ، وهم

دائماً عطاش لرؤيته ، وخاصة إذا كان إدراكاً لثأر ، فإنهم يحرمون على أنفسهم كل متاع للحياة ، فلا يقربون الخمر ولا النساء ولا يصلحون أى شأن من شئونهم فى الثياب أو الزينة ، بل يفرغون للحفيظة ولا تزال صدورهم تغلى بالموجدة ، ومن حولهم نساء العشيرة يبكون القتيل ويستثيرون ببطولته ومناقبه رجالها حتى يغسلوا عنهم عار قتله بما يسفحون من دماء قاتله ودماء قومه .

الثأر ، الثأر ، كلمة كانت تدوى فى كل حى وفى كل عشيرة ، فدائماً دم مسفوح ، ودائماً شر معقود ، ودائماً رماح تطعن فى القلوب ودائماً سيوف تحز فى الرءوس ، ودائماً حرب وطعان ، وكأن أوقات السلم إن هى إلا لحظات لالتقاط الأنفاس ، ثم تليها كوارث الحرب وما يتهاوى فيها من الشجعان والأبطال ، حتى ليصبح المقتول فخراً لقبيلته ، مثله مثل القاتل ، إذ كم من عدوان رده عن قبيلته ، وكم من أعداء شارك قبيلته فى تمزيق جموعهم ، وكم ظل يذود عنها ويحامى ويقاتل حتى قتل ، كما يقتل الشجعان الذين يهبون أنفسهم راضين لقبائلهم . ومايزالون يأخذون لها بأثآرها وأوتارها ، منزلين بخصومها أوتاراً وأثآراً مماثلة . وبذلك كانت حياة الجاهليين حلقات مفرغة من أوتار وأثآر لا تنتهى ، فكلما وتر فرد من عشيرة شخصاً من عشيرة أخرى وسفك دمه سارعت عشيرته إلى أخذ وتره وثأره ، فالعشيرة دائماً واترة موتورة ، وصوّر ذلك دريد بن الصِّمَّة أحد فرسان الجاهلية وأبطالها قائلا :

وإنا للَحْمُ السيفِ غير نكيرةٍ ونُلحمه حيناً وليس بذى نُكْرِ

يُغارُ علينا وأترين فيُشْتَفَى بنا إن أُصِبْنا أو نُغير على وِتْرِ
قسمنا بذاك الدَّهْرَ شطرين بيننا فما ينقضى إلا ونحن على شَطْرِ

وواضح أنه يرسم حياته وحياة عشيرته ، فهم دائماً لحم وطعام لسيوف أعدائهم ، وبالمثل أعداؤهم دائماً لحم وطعام لسيوفهم فى غير شك ولا إنكار ، فتلك حياتهم ، لا يزال الفارس منهم يقاتل حتى يحاط به ، وحينئذ لا يلقى السلاح ولا يستسلم ، بل يقاتل حتى يقتله الأعداء ، وحتى يشفوا غيظهم بدمائه المسفوحة فى بعض معاركهم أو غاراتهم ، وكأنما أوقات دهرهم مقسومة قسمين : قسم لانتصارهم على أعدائهم وقسم لانتصار أعدائهم عليهم ، فدائماً دقٌّ بالرماح فى النحور ، ودائماً طعن بالسيوف فى الصدور ، وكأنما تحول الطعن والدق إلى سجية طبيعية من سجاياهم ، بل لقد أصبحا غريزة جوهرية من غرائزهم .

ولعلهم لم يكونوا يشعرون بِدَيْن إزاء آبائهم وأجدادهم كما كانوا يشعرون إزاء الأخذ بأثآرهم وتِراتهم ، فكان الابن إذا قتل أبوه أو جده وهو فى المهد أو وهو صبىٌّ لم يدرك ارتسم الحقد والضغن على قاتله فى سويداء قلبه ، حتى إذا شبَّ عن الطوق وبلغ مبلغ الشباب عمد إلى تحريم كل زينة ومتاع على نفسه : فلا يتعطَّر ولا يشرب خمرا ، لئلا ينسى ثأره ، بل لكى يعيش له ولا يشغله سواه ، وإنه ليحس كأنه وجد ليدرك ثأر أبيه أو جده ، ولينتقم له انتقاماً مروّعاً . وقد يكون فى قصة قيس بن الخطيم شاعر المدينة فى الجاهلية ما يصور ذلك تصويراً دقيقاً : فقد حدث الرواة أن رجلا من بنى عامر سكان نجد قتل جدَّه

وكان يسمى عدياً ، وأن أباه الحطيم قتله رجل من بني عبد القيس سكان هجر قبل أن يثأر لأبيه عدي . فخشيت أم قيس على ابنها وكان صبياً أن يطلب بثأر أبيه وجده ، فيهلك دون غايته ، فعمدت إلى كومة من تراب عند باب دارها فوضعت عليها أحجاراً ، وجعلت تقول لقيس : هذان قبرا أبيك وجدك، فكان قيس لايشك في ذلك ، وشب قوياً شديد الساعدين ، فنازع يوماً فتى من فتيان قومه ، وخاف الفتى على نفسه ، فقال له ليرده عنه : والله لو جعلت شدة ساعديك على قاتل أبيك وجدك لكان خيراً لك ، فقال له : ومن قاتل أبي وجدي ؟ قال : سل أمك تخبرك . فثل أمامها ، وأمسك بسيفه ، فوضع مقبضه على الأرض وحده القاتل في صدره مائلا عليه ، وقال لها : أخبريني من قتل أبي وجدي ؟ قالت له : ماتا كما يموت الناس ، وهذان قبراهما بالفناء ، فقال لها : والله لئن لم تخبريني بمن قتلهما لأتحاملن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ، فأخبرته بالحقيقة . فخرج لتوه إلى بستانه ، فوجد بعيره يُستَقى عليه الماء من بئر هناك ، والدلو ممدود لأخذ الماء ، فضرب الحبل بسيفه فقطعه ، وسقطت الدلو في البئر ، وأخذ برأس البعير ، فحمل عليه غرارتين من تمر ، وركبه قائلا : من يكفيني أمر أمي ، فإن مت أنفق عليها من هذا البستان حتى تموت ثم يكون له ، وإن عشت فهو مالي عائد إلي ، وله منه أن يأكل ما شاء من تمره . وتكفل له بذلك رجل من قومه ، ومضى تطويه الأيام والشهور ، وهو يتحسس ويبحث ، حتى عرف القاتلين ، وظل يلتمس غرة من كل منهما حتى أصابها وأدرك ثأره لأبويه ، وقرت

عينه واطمأنت نفسه ، وأنشأ يقول :

ثأرْتُ عَدِيًّا والخَطِيمَ فلم أُضِعْ ولايةَ أشياخٍ جُعِلتُ إزاءها

وهى قصيدة طويلة تصور مدى ما كان يضطرم فى نفسه من غضب عنيف على قاتلى أبيه وجده ، وكيف كان يتحرق ويتلهف على لقائهما كى يسفك دماءهما ويضع عن ظهره أعباء الثأر التى ألقت بكلاكلها عليه ، وتهدأ نفسه وتستريح بعد طول العذاب وطول العناء .

ويخيل إلى الإنسان كأن كل عربى فى الجاهلية كان قيس بن الخطيم ، فهو لا يقر له قرار ، إلا إذا أدرك ثأره ومحا عاره ، وكذلك كانت كل عربية ، ماتزال تصلى بنار الثأر ، وماتزال تندب البطل المقتول وتصيح ، وماتزال تنشد الأناشيد الحماسية صارخة من أعماقها فى أبطال قبيلتها : هبوا للثأر واغسلوا عنا العار وما جلب لنا من الذل والهوان على نحو ماهو معروف عن رثاء الخنساء لأخويها صخر ومعاوية ، وهو ليس رثاء فقط بل هو أيضاً تجسيد لعظم المصاب فيهما حتى يحس قومها بما خسروا فى البطلين وينكلوا بقاتليهما ويمزقوهم شر ممزق .

وعلى نحو ما كانت سيوفهم مسلولة لمحو عار الثأر والقعود عنه كانت مسلولة أيضاً لا تغمد دفاعاً عن الشرف والعرض ، ومن خير ما يصور ذلك قصة عمرو بن كلثوم سيد بنى تغلب وبطلهم فى الجاهلية مع عمرو ابن هند أمير الحيرة ، فقد قص الرواة أن هذا الأمير أرسل إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ، فأقبل عمرو فى جماعة من تغلب ، ومعهم أمه ليلى بنت مهلهل . وأمر عمرو بن هند برواق ضُرب لعمرو وأمه وقومه فيما بين

الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل إمارته ، فحضروا . ودخل ابن كلثوم على ابن هند فى رواقه ، ودخلت أمه على هند فى جانب من الرواق ، فرحبت بها ، وكان بجوارها أطباق وطرف كثيرة ، ولم تلبث أن قالت لليلى : ناولينى يا ليلى ذلك الطبق مشيرة إليه ، فقالت لها ليلى : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعادت عليها وكررت وألحت . فصاحت ليلى : واذُلاه يالتغلب ! فسمعها ابنها ، فثار الدم فى وجهه ، وكان بالرواق سيف معلق ، فوثب إليه ، وضرب به رأس ابن هند ضربة قاتلة ، ونادى فى أمه ومن معه من قومه ، وولوا وجوههم مسرعين نحو ديارهم ، وفى ذلك نظم معلقته النونية المشهورة يفتخر فيها فخراً مسرفاً بقومه وأيامهم وانتصاراتهم فى الحروب ، وهى مفعمة بالمبالغة فى الفخر ووصف البلاء فى الحرب ، وهى مفعمة أيضاً بروح عاتية كلها عتو وكلها تمرد . وهى تصور مدى ثورة الجاهليين حين تسول لشخص نفسه أن يمس شرفهم من قريب أو من بعيد ، فإنهم يثورون ثورة لاحدود لها ، ثورة تزهق فيها النفوس ، وتفارق فيها الأجساد الرءوس . وكانت حماية النساء جزءاً لا يتجزأ من شرفهم وعرضهم ، ولعلهم لذلك كانوا يصحبونهن معهم فى الحروب ، حتى يلهبنهم حمية فى القتال ، وحتى يشعلنهم بأناشيدهن وإثاراتهن وتهييجاتهن حماسة وبسالة ، وحتى يصمدوا من دونهن ذياداً عنهن ، مهما استعر أوار القتال ومهما أتت على الرجال والأبطال ، وفى ذلك يقول ابن كلثوم فى معلقته مفاخراً بنساء قومه :

على آثارنا بِيضٌ حِسانٌ   نحاذر أن تقسَّم أو تهونا

أخذن على بعولتهن عهداً إذا لاقوا كتائب مُعْلَمينا
ليستلبُنَّ أفراساً وبَيْضاً وأسرى فى الحديد مقرَّنينا
يَقُتْنَ جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا
إذا لم نَحْمِهِنَّ فلا حَيِينا لشىء بعدهنَّ ولا بقينا

فنساؤهم الجميلات اللائى شغفن قلوبهم حباً من ورائهم ، وأشد ما يخشونه أن تدور عليهم الدوائر فى بعض الحروب فيقعن فى أيدى الأعداء سبايا وغنائم ذليلات صاغرات . ويقول عمرو إنهن أخذن على أزواجهن من الأبطال والشجعان عهداً ألا يبرحوا ساحة القتال إلا بعد تنكيلهم بالفرسان وإراقتهم دماءهم وحزّهم رءوسهم ، ومن بقى منهم جاءوا به مقرَّناً فى الأغلال والقيود ، وكن يهددنهم إذا لم يذودوا عنهن ويحموهن بأنهن سيفارقنهم فراق الأبد . ويقول عمرو إنه لا حياة لهم بدونهن ، وهم الدماء يثبتون ثبوت الجبال الرواسى فى حمايتهن والدفاع عنهن حتى لذلك الأخير .

وكانت قبائلهم تحمل جناية أى فرد منهم ، فبمجرد قتله شخصاً من قبيلة تصبح قبيلته شريكة معه فى دمه ، واستقر ذلك فى نفوس القبائل جميعاً ، بحيث لا تطلب القبيلة ثأرها من واترها وحده ، بل تطلبه من جميع قبيلته كلها وسرعان ما يتدافعون فى حرب مبيدة ، وقد تتسع الحرب ، فتتحالف القبيلتان المتحاربتان مع قبائل أخرى ، وتصبح إزاء حلفين كبيرين ، وتتوالى الوقائع . وكانوا يسمونها أياماً ، لأنهم كانوا يتحاربون نهاراً حتى إذا دخل الليل أغمدوا السيوف إلى الصباح . وعادة

ينسبونها إلى البقاع والآبار والجبال التي تنشب بجوارها ، مثل يوم عين أُباغ وكان بين المناذرة والغساسنة، ويوم شعب جبلة وكان بين عَبْس وأحلافها من بني عامر بن صعصعة وبين ذبيان وأحلافها من تميم ، ويوم الرَّحرحان بين قيس وتميم ، ويوم بزاخة بين ضبة وإياد ، ويوم بعاث بين الأوس والخزرج في المدينة. وكانوا يغمدون سيوفهم في الأشهر الحرم فلا يقتتلون ، إلا بعض مناوشات اشتركت فيها قريش وكنانة وهوازن وبنو عامر وتسمى بأيام الفِجار. وتعد أيامهم بالمئات حتى لقد بلغ بها بعض المصنفين القدماء وهو أبو عبيدة ألفاً ومائتي يوم ، وكان لكل يوم أبطاله وفرسانه المعلمون ، ومن أشهر أيامهم يوم ذى قار قبيل الإسلام ، وهو اليوم الذى هزمت فيه قبيلة بكر بقيادة هانئ بن قبيصة الشيبانى جموع الفرس وجيوشهم ، وذوقار واد متاخم لسواد العراق ، ويسمى هذا اليوم أيضاً يوم حِنْو قُراقر وهو موضع بجنب ذى قار ، وهو أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم مما جعل الأعشى يصيح فى وجوههم بمثل قوله :

وجُنْدُ كِسْرى غداة الحِنْو صبَّحهم
منا غطاريف ترجو الموت فانصرفوا

لما أمالوا إلى النُّشاب أيديهم
مِلْنا ببيضٍ فظلّ الهامُ يُقْتَطَفُ

وخيل بكرٍ فما تنفك تطحنهم
حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف

لو أن كل مَعَدٍّ كان شاركنا
في يوم ذي قارَ ما أخطاهم الشرف

والأعشى يشيد باستبسال قومه في الحرب وما أنزل فرسانهم على العجم من صواعق السيوف التي أطاحت برءوسهم ، وكأنما كانت قد أينعت وحان قطافها ، بل كأنما نصبت رحى كبيرة ، تطحنهم طحناً . ولم يكد ينتصف النهار حتى ولوا الأدبار ، وبكر من ورائهم تدق رقابهم وتشق رءوسهم ، وحقّ للأعشى أن يعد ذلك اليوم شرفاً للعرب جميعاً من معد وغير معد ، فقد أُديل لهم من الفرس وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من سحقهم سحقاً لا تقوم لهم قائمة من بعده .

ومن أشهر أيامهم فيما بينهم حرب البسوس التي استمرت أربعين عاماً بين بكر وتغلب وحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان وبطلها غير مدافع بل ليثها المقدام عنترة بن شداد العبسي . كان أبوه من سادات عبس وشجعانها ، أما أمه فكانت جارية حبشية تسمى زبيبة وكان من تقاليد الجاهليين ألا يلحقوا أبناءهم من الجواري والإماء بنسبهم إلا إذا شبوا وأبدوا شُجاعة وبسالة فذة ، وإلا ظلوا عبيداً أذلاء . وكان أسود اللون ، فاجتمع عليه ذلان ، ذل الأم وذل اللون الذي ورثه عنها ، وأحسّ ذلك في أعماقه ، وكان قوي الجسم موثق الخلق ، فتدرب على الحرب والفروسية ، وأبوه وقومه غير آبهين له . وحدث أن أغارت بعض أحياء من العرب على حيِّه ، فأصابوا منهم واستاقوا إبلاً لهم ، وثار لقومه فكرّ عليهم ، وأبلى بلاء حسناً في حربهم واستنقذ الإبل ، ففرح به أبوه

وألحقه بنسبه ، ورد عليه حريته . وبذلك غسل ذل ولادته وذل لونه وأصبح فى عداد قبيلته الأحرار الأبطال . وكان يكن حباً لعبلة ابنة عمه مالك ، فطلبها من أبيها ، وضن عليه بها ، إما لسواده ، وإما لنسبه من أمه ، وكان حبه لها قد ملأ عليه قلبه وعقله ، فحزَّ فى نفسه رفض عمه له ، وظل مفتوناً بها هائماً أشد ما تكون الفتنة والهيام . واتفق أن كان الشعر قد أخذ يتفجر على لسانه نبعاً عذباً سائغاً شرابه ، فاتخذه أداة للتعبير عن بطولته الحربية وحبه الظامئ لابنة عمه التى شغف بها وفتن بجمالها ، وإنه ليعلن إليها مراراً أنه إنما يقاتل ويستبسل فى القتال من أجلها ، ودائماً خيالها لا يبرح ذاكرته حتى فى أحرج المواقف وأقسى الظروف ، والرماح تأخذه وتعبث به من كل جانب ، على نحو ما يصور ذلك قوله :

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهلٌ
منى وبيضُ الهِنْد تقطر من دمى
فوددتُ تقبيل السيوفِ لأنها
لمعتْ كبارقِ ثغرِكِ المتبسِّمِ

وهى صورة من امتزاج الحب بالحماسة واختلاط نار الحرب بنسيم الحب . وعلى نحو ما يقدم لصاحبته بطولته الحربية يقدم لها بطولته النفسية والخلقية على شاكلة قوله لها فى المعلقة :

أثنِى علىَّ بما علمتِ فإننى سمْحٌ مخالقتى إذا لم أُظلَمِ
فإذا ظُلمت فإنَّ ظُلمىَ باسلٌ مرٌّ مذاقته كطعم العَلْقمِ
وإذا شربتُ فإننى مستهلكٌ مالى وعِرْضى وافر لم يُكْلَمِ

وإذا صحوتُ فما أُقصِّر عن نَدًى ... وكما علمتِ شمائلي وتَكرُّمي

هلاَّ سألتِ القوم يا ابنةَ مالكٍ ... إن كنتِ جاهلة بما لم تعلمي

يخبرْكِ من شهد الوقائع أنني ... أَغْشَى الوَغَى وأَعِفُّ عند المغْنَمِ

وهو يصور نفسه لعبلة أبيًّا لا يقبل الضيم ولا الظلم بأى لون من ألوانه ، بل لا يطيقهما ، فإن ظُلِم أصبح كالبركان الثائر ، يرد على الظلم بظلم مرير لا يبقى ولا يذر ، وقد يشرب الخمر ولكنها لا تفسد مروءته ولا بطولته الخلقية والنفسية ، فعرضه وشرفه دائماً مصونان محميان لا يستطيع أحد أن يمسهما بسوء ، وكأنهما غيلان لأسد هصور . ودائماً يسارع إلى المكارم والمحامد وكأنه الغيث كرماً وجوداً ، ويتوجه لصاحبته بالخطاب أن تسأل عنه الفرسان والأقران ليحدثوها عن شمائله وشيمه الرفيعة ، وكيف أنه يقتحم المعارك ويصلى نارها مطيحاً برءوس الشجعان كأنه القضاء النازل ، حتى إذا أخذت كتيبته تجمع الغنائم والأسلاب كفَّ وأحجم ، عفة نفس عظيمة همها المسلوب وسفك دمه لا السلب والغنيمة ، فهو لا يحارب من أجل الغنائم وإنما يحارب من أجل المجد الحربى وشرفه الرفيع . وتكثر عند عنترة الأبيات التى يصور فيها صلابة نفسه واعتداده بكرامته وبأنفته وعزته وترفعه عن الصغائر والمغريات وتعففه عن كل طعام خبيث دنيء ذميم ، يقول :

لا تَسْقِنى ماء الحياة بذلَّةٍ ... بل فاسْقِنِى بالعزِّ كأْسَ الحَنْظَلِ

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأَظلّه ... حتى أنال به كريم المأْكلِ

فهو يرفض ماء الحياة الممزوج بالذل ، بل إنه يرفض الحياة كلها من أجله . أما العز فإنه سعادته فى دنياه ، وهو يقبل عليه وعلى كؤوسه ولو كانت مترعة بنقيع الحنظل الذى لا يطاق . وهو يؤثر الطوى والجوع الشديد حتى الموت على الطعام الكريه الذى يزدريه أمثاله من أصحاب النفوس الأبية . ونراه يقف أمام المرأة نفس هذا الموقف الكريم ، وكان كثيراً ما يسبى النساء ، ويحدثنا أنه ما استام أو بعبارة أخرى ما راود سبية عن نفسها ، بل كان يدع لها حريتها لتقبله زوجاً أو ترفضه ، فإذا قبلته أدى إلى أهلها صداقها . كما يحدثنا أنه دائماً يغض طرفه ويكف بصره عن جاراته حتى لا يؤذيهن بنظراته وتطفلاته ، يقول فى إباء وشمم :

ما استمتُ أُنثى نفسَها فى موطنٍ
حتى أوفِّى مهرها مولاها

وأغضّ طرفى ما بدتْ لى جارتى
حتى يوارى جارتى مأْواها

إنى امرؤٌ سمْحُ الخليقة ماجِدٌ
لا أُتبع النفسَ اللَّجوجَ هواها

فنفسه لا تندفع فى تحقيق مآربها الجسدية ، بل هو يكفها كفاً بل يفطمها عن هذا المأرب أو ذاك من المآرب التى قد يلتمسها صغار النفوس من حوله ، حتى تلك المآرب التى تتعلق بالمرأة . وناهيك بما

كانت تستشعره السبية من ذل ، وكأنما عاهد نفسه الكريمة أن يرد لها اعتبارها وكرامتها أولا قبل أن يقربها وقبل أن تقبله زوجاً . أما امرأة جاره فإن وفاءه له جعله لا يمد عينه إليها . وإنه لمجد نفسي خلقي لا يقل روعة عن مجده الحربي. ومازال يكتب سطور هذا المجد بسنان سيفه وما سفك من دماء أقرانه حتى وافاه القدر قبيل البعثة بنحو سبع سنوات . وكان تجسيده فى أشعاره لبطولة العرب فى الجاهلية من جميع أقطارها الحربية والنفسية والخلقية سبباً فى أن تنصبه العصور التالية تمثالا للبطولة العربية وكأنه أصبح الناطق عن شعاراتها . ويدور الزمن دورات يخرج فيها العرب من جزيرتهم يفتحون مشارق الأرض ومغاربها ويبلون فى فتوحهم بلاء عظيما ، ويدخلون فى معارك لا تكاد تنتهى منها معركة حتى تنشب أخرى مع الترك والفرس والبيزنطيين والروم ، وهم يقطعون سهرهم فى الليالى الطويلة بالحديث عن أبطالهم وخاصة عنترة بطل الجاهلية ويتكاثر الحديث والقصص عن حبه لعبلة ابنة عمه وعن حروبه وشمائله ، ويبالغ القصاص فى تصوير بطولته حتى لتشوبها الأسطورة . ومايزال القصص عنها وعن صاحبها ينمو مع الزمن حتى يتجرد له أديب مصرى فى العصر الفاطمى يسمى يوسف بن إسماعيل فيصنع منه قصة طريفة ألفها فى أجزاء صاغها من السجع والشعر ، وقطع الحديث فى نهاية كل جزء فى تضاعيف وصفه لمعركة حامية الوطيس ، حتى يجذب القارئ لمتابعة أحداث القصة فى الجزء التالى . ومضت العصور التالية بعد عصر يوسف بن إسماعيل تضيف إلى القصة خوارق جديدة حتى اتخذت شكلها النهائى فى القرن السابع الهجرى ، وهو شكل تحول

بها إلى أسطورة خيالية ، ليس للحقيقة فيها إلا ظل ضئيل ، فعنترة لايزال بطل عبس ، ولايزال ابن زبيبة الجارية السوداء ، ولا يزال العاشق المفتون بعبلة ابنة عمه مالك ، ولايزال صاحب الأمجاد الحربية فى الجزيرة العربية ، غير أن القصة لا تقف عند ذلك فإنها تجعله يشارك العرب فى حروبهم مع الحبشة والفرس وبيزنطة والحروب الصليبية وروما والأندلس . وبذلك تصبح القصة تاريخ الأمجاد الحربية للعرب على مر العصور وكأنما تحولت إلى ملحمة تضم بطولتهم القديمة فى الجاهلية وبطولاتهم التالية فى الإسلام ، بل لكأنها إلياذة العرب التى أودعوا فيها مغامراتهم وبطولاتهم الحربية ، وعنترة فيها نبع لايزال سائلا بالبطولة فى بلاده وغير بلاده ، بل لايزال يمدنا ببطولات خارقة تشعل الحماسة فى نفس كل عربى.

٣

فى الإسلام

بعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام للعرب والناس أجمعين هادياً ونبيًّا كريماً مبشراً ونذيراً ، فلما أخذ يدعو قومه من قريش سخروا منه ، وقالوا كاهن أو ساحر أو مجنون . ومضى فى دعوته ومضوا يضطهدونه هو ومن آمن به ، فنصح لبعض أتباعه بالهجرة إلى الحبشة حتى لا تفتنهم قريش عن دينهم الحنيف وتردّهم إلى عبادة الأوثان . وخرج الرسول إلى الطائف يدعو أهلها للإسلام لعلهم يكونون أكثر قبولا لدعوته ، فردوه أسوأ ردّ إذ أغروا به سفهاءهم فرجموه بالحجارة. ولما يئس منهم ومن قومه عرض نفسه فى موسم الحج الجاهلى للكعبة على بعض الوافدين من أهل المدينة ، فآمنت به طائفة منهم ، وفى الموسم التالى آمنت طائفة أخرى أكثر عدداً بايعته على نصرته والدفاع عن حياض دعوته ، وألحوا عليه إلحاحاً شديداً أن يهاجر إليهم هو وأصحابه ليمنعوهم ، وليشاطروه فى نشر رسالته والذياد عنها بالسيف حين لا يكون مفر من حمله ، وعاهدوه على ذلك عهداً وثيقاً لا يمكن نقضه . ولما أمعنت قريش فى تعذيب من آمن بمحمد منها أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة قائلا لهم : إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون فيها ، فخرجوا أرسالا ، وصممت قريش الباغية على قتل الرسول فهاجر مع أبى بكر الصديق مستخفياً ، وكان وصوله إلى المدينة يوم عيد لأهلها من الأوس

والخزرج ، وكانت الحروب مستعرة بينهما فألف بين قلوبهما ، وسُمّوا الأنصار ، وسُمّي الذين هاجروا من مكة باسم المهاجرين ، وآخى بينهما جميعاً . ولم تلبث الحروب أن نشبت بينه هو وأصحابه من أهل المدينة وبين قريش وتتابعت الغزوات الكبرى فى بدر وفى أحد وانتهت بانتصار كلمة الله العليا على كلمة الكافرين السفلى وأعوانهم من اليهود أعداء الإسلام الذين كانوا يعملون سراً وجهراً على تقويض الدعوة المحمدية ناكثين عهود الرسول معهم ومواثيقه .

ولم تكد تدخل السنة العاشرة للهجرة المقابلة لسنة ٦٣٢ للميلاد حتى أتم الله نوره على العرب ، فإذا قبائلهم جميعاً تعتنق الإسلام مؤمنة بتعاليمه العقيدية والعملية ، متحولة بذلك من قبائل وثنية متنابذة متخاصمة إلى أمة تتعاون على البر والخير والتقوى ، تؤمن بإله واحد يسيطر على الكون ويحيط علمه بكل ذراته ، وسعت رحمته كل شيء ، كما تؤمن برسله وكتبه واليوم الآخر وما يتصل به من بعث وعقاب وثواب وجحيم ونعيم . وتؤمن بأن وراء عالمنا المادى عالماً غيبياً يشتمل على نوعين من الأرواح الخيرة والشريرة هى الملائكة والشياطين . وتؤدى أعمالا وفروضاً دينية قوامها الصلاة والصيام والحج والزكاة . وتتحلى بمثالية خلقية تقوم على نبذ الفواحش ما ظهر منها وما بطن ونبذ الخمر والقمار والبغى والعدوان والكبر والظلم ، واجتناب الأخلاق الذميمة مثل الغيبة والنميمة والعصبية القبلية التى أشعلت بينهم فى الجاهلية الإحن والأحقاد وأحالت حياتهم إلى ترات وأثآر لا تنتهى . ولكى يقضى الإسلام على فكرة الأخذ بالثأر نقل حقّه من القبيلة إلى الدولة ، فلم يعد الثأر

يجر ثأراً فى سلسلة من الحروب والمعارك الطاحنة بل أصبح عقاباً بالمثل وعلى قبيلة القاتل أن تقدمه لأولى الأمر حتى يلقى جزاءه . وأرسى الإسلام بجانب ذلك نظماً اجتماعية واقتصادية جديدة للأمة العربية ، إذ حاول أن يقيم ضرباً من العدالة الاجتماعية فى حياتها بفرضه على الموسر أن يرد بعض ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة ، فهو لا يعيش لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضاً لأمته وينبغى أن يتكافل مع أفرادها ويترابط معهم اجتماعياً واقتصادياً. وكانوا يحلون الربا فحرمه القرآن الكريم، كما حرم التلاعب فى البيع ، وشرع توريث المرأة وجعل لها حق التصرف فى أموالها ، ودعا دعوة واسعة إلى تحرير الرقيق .

وعلى هذا النحو رسم الإسلام للعرب مثلا عليا جديدة فى التشريع والنظم الاجتماعية والاقتصادية وفى العقيدة وشئون العبادة وفى السلوك والقيم الخلقية وما يتصل بها من الفضائل ، ففضيلة الكرم التى كان يبالغ فيها الجاهليون طلب فيها الاعتدال وألا تسقط بين التفريط والإفراط ، يقول جل شأنه : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) بل لقد وجه الكرم إلى خدمة المجتمع الجديد مجتمع الأمة ، بحيث ينفق الموسر على المعسر ، وسمى ذلك قرضاً لله وعده حقاً مفروضاً إذ يقول : (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . وكان قد جعلهم حب الانتقام والأخذ بالثأر ، يعدون الصفح والعفو رذيلة ، فعدهما فضيلة وحث عليهما وعلى كظم الغيظ بمثل قوله : (وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله

يحب المحسنين) . وكلها تعاليم تخالف ما كان عليه العرب فى الجاهلية ؛ وقد كونت منهم أمة يسودها الخير والعدالة ، ويحب كل فرد فيها لأخيه ما يحبه لنفسه ، ويتعاون معه فى كل صغيرة وكبيرة من شئون حياته ودينه .

ولم تجتمع هذه الأمة حول الدين الجديد بالحكمة والموعظة الحسنة وحدهما ، بل لقد اضطر الرسول فى مقامه بالمدينة إلى أن ينازل مشركى قريش والعرب حتى يهدم طواغيت الوثنية العاتية . وطال النزال ونشبت معارك كثيرة ، انتصرت فيها بطولة الدين الحنيف على بطولة الوثنية والعصبية وما يتبعها من الأخذ بالثأر ومحبة الانتقام . وبون بعيد بين بطولة لا باعث لها سوى التخلص من عار القعود عن طلب الثأر وعن الصريخ والاستغاثة ، وبطولة باعثها الجهاد فى سبيل الله وسبيل نشر دينه العظيم ، وهو جهاد يفتح للمستشهدين فيه أبواب جنات النعيم على مصاريعها وأبواب رحمته ومحبته ورضوانه . وتكثر فى القرآن الآيات الكريمة التى تحض على الجهاد وبذل المهج والأرواح والأموال وكل نفيس غال فى سبيل إعلاء كلمة الله من مثل قوله تبارك وتعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص) ؛ وقوله : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون) ، وقوله : (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) وقوله : (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم) ، وقوله : (انفِروا خِفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم

خير لكم إن كنتم تعلمون) وقوله : (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما) ، وقوله عز شأنه : (وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) . ويقرن القرآن الجهاد كثيراً بالصبر والثبات واجتماع الكلمة من مثل قوله جل وعز : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) ، وقوله : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) وقوله : (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) . وكان الرسول عليه السلام لايزال يحرض على الجهاد فى سبيل الله صادعاً بأمر ربه فى مثل قوله تعالى : (يا أيها النبى حَرِّض المؤمنين على القتال) وهو تارة يخطب فى جنده وتارة يحدثهم أحاديثه النبوية على شاكلة قوله : « من قُتل مجاهداً أو مات مرابطاً فحرام على الأرض أن تأكل لحمه ودمه ، ولم يخرج من الدنيا حتى يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وحتى يرى مقعده من الجنة » ، وقوله : « فى كل أمة رهبانية ، ورهبانية أمتى الجهاد » ، وقوله : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى أنف مسلم » ، وقوله عن ربه سبحانه : « من خرج مجاهداً فى سبيلى ابتغاء مرضاتى فأنا عليه ضامن أو هو علىّ ضامن ، إن قبضته أدخلته الجنة وإن رجعته رجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة » ، وقوله : « لرباط يوم خير من صيام شهر وقيامه (بالصلاة ليلا) » .

وقد أحالت هذه الأحاديث وما يماثلها من كلام الرسول عليه السلام ومن آى الذكر الحكيم الصحابة إلى أبطال خلقوا للجهاد فى سبيل الله ، أبطال لا يخشون الموت ولا يرهبونه ، بل إنه يمشى فى ركابهم ليُنْزِلوه

صواعق على أعداء الله ورسوله ودينه الذين استحالوا إلى كباش تنتظر الذبح ، فلا يلتقون معهم حتى تسيل دماؤهم أنهاراً ، وكأنما اخترع الدين الحنيف أبطاله اختراعاً . بل إنه الإيمان وما ينتظره أصحاب الرسول من الثواب والنعيم الأخروى الدائم هو الذى أحال كل فرد فيهم إلى أسد يزأر ويزمجر ويفتك بالكفار فتكاً ذريعاً . وكأنما أصبحوا رموزاً لبطولات سماوية تصارع بطولات أرضية ، مما جعل حروبهم كلها ظفراً وانتصاراً مؤزراً . ولكى تتضح لنا روح هؤلاء الأبطال الجدد يحسن أن نقف قليلا بإزاء ما كان من حوار بين الرسول وأصحابه من المهاجرين والأنصار قبل وقعة بدر الكبرى ، فإنه لما علم بمسير قريش لقتاله جمع أصحابه واستشارهم هل يقدم على حرب قريش ونزالها أو يحجم ؟ فقام المقداد أحد المهاجرين فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله (من قتال المشركين) فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لنكونن من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك أو يفتح الله لك بالنصر المبين . فقال له رسول الله خيراً ودعا له بخير . وأقبل على الأنصار يريد أن يعرف ما عندهم قائلا : أشيروا علىّ أيها الناس ، فقال له سعد بن معاذ الأنصارى : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل . قال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فو الذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا

هذا البحر (الأحمر) فخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فانهض بنا على بركة الله. وسُرّ الرسول بقوله؛ وتوجه إلى القوم فقال لهم: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم. وسار مع جنده من المهاجرين والأنصار حتى نزل بماء بدر، وأقبلت قريش بصناديدها ورجالها فى جيش كثيف يبلغ أضعاف جيش المسلمين، والتقت الفئتان، ودنا أفرادهما بعضهم من بعض، ونهض رسول الله إلى أصحابه يحرضهم ويحثهم ويستنهضهم قائلا: والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، فقال عمير بن الحمام الأنصارى وفى يده تمرات يأكلهن: بَخٍ بخ! (عجباً عجباً) فما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء، ثم ألقى التمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل القوم فاعلا بهم الأفاعيل حتى قُتل وهو يقول:

رَكْضاً إلى الله بغير زادِ إلا التُّقى وعمل المعادِ
والصَّبْر فى الله على الجهادِ وكلُّ زادٍ عُرْضَةُ النَّفادِ
غيرُ التُّقَى والبِرِّ والرَّشادِ

وهجم أصحاب رسول الله على الفئة الضخمة الباغية يقتلونهم ويحتزون رءوسهم ويأسرونهم، حتى ولوا الأدبار وهم صاغرون. وقد خلفوا من ورائهم مائة وأربعين من ساداتهم وأبطالهم بين أسير وقتيل،

غير الأنفال والغنائم الكثيرة التى أفاءها الله على المسلمين . ومضت فلول قريش تئن من هول المعركة، وارتفع الصياح والعويل والنحيب فى كل دار ، وأجمعت قريش أن تعود لحرب محمد وأصحابه، ومازالت تعد لذلك حتى خرجت ومعها النساء ينشدن الأناشيد الحربية، ونزلت بجوار « أحد » قرب المدينة، ولقيها الرسول وأصحابه، وأبلى على بن أبى طالب وحمزة وأبو دجانة بلاءحسناً وقاتل الصحابة قتالا شديداً ببصائر ثابتة ، فانهزمت قريش ، وتركت الرماة مواقعها ، فكرَّ المشركون: وقتلوا طائفة من المسلمين بينهم حمزة بن عبد المطلب ، وصبر الرسول على الرغم من جراحة أصابت وجهه الكريم ، صبر مع صحابته حتى انقشعت الغمرة ، وفى تلك الغزوة كان على بطلها ينشد :

لعمرى لقد قاتلتُ فى حُبِّ أحمدٍ
وطاعة ربٍّ بالعباد رحيمِ
وسيفى بكفِّى كالشهاب أهزُّه
أجذّ به مِنْ عاتقٍ وصميم
فما زلت حتى فضّ ربى جموعهم
وحتى شفينا نفسَ كلِّ حليم

ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن ابن أبى طالب كان البطل المعلم الذى ترتجف عند سماع اسمه أبطال الكفار والمشركين . ومن صور بطولته المجيدة أن عمرو بن عبد ودّ أحد صناديد قريش خرج فى غزوة الخندق

يطلب النزال وقد ركب فرساً له ، فخرج له على وقال له : يا عمرو، إنك كنت تعاهد الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى خصلتين إلا أخذت منه إحداهما قال : أجل ، قال على له : فإنى أدعوك إلى الله عز وجل وإلى رسوله والإسلام قال : لا حاجة لى بذلك قال : فإنى أدعوك إلى النزال ، قال عمرو : ولمَ يا بن أخى فإنى والله ما أحب أن أقتلك؟ قال على : ولكنى والله أحب أن أقتلك : فحمى عمرو عند ذلك ونزل عن فرسه وضرب وجهه ، ثم سار نحو ابن أبى طالب ، فتنازلا وتصارعا صراعاً شديداً ، وثار الغبار بينهما حتى حال دونهما ، فلما انجلى عنهما شوهد على وهو على صدر عمرو يحتز رأسه ، ثم وقف وهو يصيح بعمرو وانتصاره للأوثان والأنصاب التى كانوا يقدسونها ويذبحون لها القرابين ، كما يصيح بالأحزاب الذين تجمعوا مع قريش لقتال الرسول وأصحابه :

نَصَر الحجارةَ من سفاهة رأيه ... ونصرتُ دينَ محمدٍ بضِرابِ
لاتحسبُنّ الله خاذلَ دينه ... ونبيِّه يا معشرَ الأحزاب

وفى كل غزوة نلتقى بعلى وبطولته الخارقة وهو يطيح برءوس المشركين والكافرين وكأنه يطلب الاستشهاد والقتل ليفوز بالحسنيين : رضوان ربه ونعيمه ، وحققت فيه كلمة العرب التى توارثوها من قديم : اطلب الموت توهب لك الحياة ، فكان يكفى أن يلمع أمام منازله سيفه ذو الفقار فإذا رأسه قد فارق جسده إلى غير مآب ، وبحق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سيفه وفيه : « لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على ».

ولما فرغ الرسول من عمرة القضاء وعاد إلى المدينة بعث جيشاً مكوناً من ثلاثة آلاف لحرب الروم فى الشام ، وجعل قيادته لزيد بن حارثة ، ثم قال : إن أصيب زيد فالقيادة لجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب خلفه عبد الله بن رواحة . ومضوا حتى نزلوا معان جنوبى الأردن ، فبلغهم أن هرقل إمبراطور بيزنطة نزل مدينة مآب من أرض البلقاء (عمَّان) فى مائة ألف من الروم وانضم إليه مائة ألف من عرب الشام . فلما بلغ ذلك زيداً وأصحابه أقاموا فى معان يومين ينظرون فى أمرهم ، وقال نفر : نكتب إلى رسول الله ونخبره بعدد عدوّنا ، فإما أن يمدنا برجال ، وإما أن يأمرنا بأمر فنمضى له ، ووقف عبد الله بن رواحة ونادى فى الناس قائلا : يا قوم والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم تطلبونه وقد أدركتموه ، يريد الاستشهاد فى سبيل الله . ثم قال : وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا إلى لقاء القوم ، فإنما هى إحدى الحسنيين : إما انتصار ، وإما استشهاد ، فقال الناس : صدق ابن رواحة ، وزحفوا إلى العدو ، وقد امتلأوا حماسة وحمية ، وكل منهم يود لو لقى مصرعه حتى تكتب له الشهادة ، وابن رواحة يحرضهم ويحثهم منشداً :

لكننى أسأل الرحمن مغفرةً — وضربةً ذاتَ فرْغٍ تقذفُ الزَّبَدَا

أوطعنةً بيدَىْ حَرَّانَ مجهزةً — بحربةٍ تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مرّوا على جَدَثى — أرشدك اللهُ من غازٍ وقد رشدا

وواضح أنه يتمنى لنفسه الشهادة بضربة ذات فرغ أو سعة .

تقذف الدم الطاهر ، أو طعنة بيدى عطشان للدماء تجهز عليه بحربة تنفذ إلى الأحشاء والكبد نفوذاً مميتاً ، حتى يذكر المسلمون من بعده بلاءه فى الله ودينه . وكأنما استجاب الرحمن دعاءه وسؤاله ، فقد مضت الفئة القليلة ، حتى إذا كانت بمؤتة إحدى القرى القريبة من مدينة الكَرَك الحالية بالأردن لقيت جيوش الأعداء ، والتحم القتال ، وتراءى المسلمون على حياض الموت ، وقاتل قائدهم زيدبن حارثة وبيده اللواء قتالا مستميتاً حتى قُتل ، وقذف باللواء إلى جعفر بن أبى طالب ، فعقر فرسه ، وقاتل حتى قُطعت يمينه ، فأخذ اللواء بيساره فقُطعت فاحتضنه ، وقد غرق فى الدم ، وروحه تفيض وهو ينشد :

يا حبَّذا الجنةُ واقترابها طيبةً وباردًا شرابُها

وحمل منه اللواء عبد الله بن رواحة ، واقتحم القومَ على فرسه ، يقتلهم ويسفك دماءهم ذات اليمين وذات الشمال وهو يستثير نفسه ويحمسها ويدفعها دفعاً إلى الضراب والطعان ، حتى تحقق له ما ظل يصبو إليه من الاستشهاد فى سبيل الله ، وكان لايزال يهيجها بمثل

أقسمتُ يانفسُ لتنزلِنَّهْ طائعةً أو فلَتُكْرَهِنَّهْ

قد أجلب الناس وشَدّوا الرَّنَّهْ مالى أراكِ تكرهين الجنَّه

قد طالما قد كنتِ مُطْمَئِنَّهْ

وقوله :

يا نفسُ إلاّ تُقتَلى تموتى هذا حِمام الموت قد لقيتِ

وما تمنيتِ فقد أعطيتِ وإن تأخَّرتِ فقد شقيتِ

وانتهى اللواء إلى خالد بن الوليد ، فرأى من الحكمة أن ينصرف بمن معه عن الحرب ، فانحاز بهم وعاد إلى المدينة . وكأن ما أظهرت هذه الجماعة القليلة من البسالة هى التى جعلت الروم فيما بعد كلما التقوا بالمسلمين فى عصر الفتوح ألقوا إليهم عن يد وهم صاغرون .

ولم يصور الأبطال وحدهم بطولتهم فى غزوات الرسول ، فقد كان يشركهم فى تصويرها الشعراء من حولهم . ولعل شاعراً لم يشتهر بذلك كما اشتهر حسان بن ثابت شاعر الأنصار ، ويقال إنه لم يشهد مع الرسول غزوة لعلة كانت قد أصابته ، وهو إن لم يشهر معه سيفه عن عجز ، فقد شهر معه لسانه على قريش وخصومه ولم تنشب معركة أبلى فيها المسلمون إلا وقف عندها طويلا يسجل بلاءهم وجهادهم المستميت .

وانتصرت أخيراً وبعد كفاح شديد بطولة هؤلاء المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لربهم ودينهم ، وعمت أضواء الدين الحنيف الجزيرة العربية ، وكان الرسول قد أعد جيشاً لحرب الروم ، وأصابه الإخفاق فى مؤتة كما مر بنا آنفا فرأى أن يعد جيشاً جديداً ؛ وذكر الرواة أنه أرسل رسلا إلى الملوك ومن بينهم ملك الروم وملك فارس يدعوهم إلى الإسلام ، ويحملهم تبعة أقوامهم ، فردّ ملك الروم فى لطف وردّ ملك الفرس فى عنف. ولما انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى رأى أبو بكر خليفته أن ينفذ فكرته فى دعوته ملكى الفرس والروم إلى الإسلام ونشره بين أقوامهم إن لم يكن بالسلم فبالسيف وحز الرقاب. وخرجت الجيوش شرقاً وشمالا ، ففُتح العراق وفتحت فارس ، وفتح الشام وفتحت مصر ، ثم فتح الشمال

الإفريقي وفتحت الأندلس ، وفتحت السند وبخارى وسمرقند . وأهم سبب في قبول هذه البلدان الحكم العربي حينئذ ما رسمه الإسلام للبلدان المفتوحة والأمم المغلوبة من المعاملة الحسنة ، على نحو ما يصور ذلك عهد الرسول عليه السلام لنصارى نجران فقد أمر أن لا تمس كنائسهم وأن تترك لهم الحرية كاملة في ممارسة عباداتهم ، وأوجب ألا يقتل شيخ ولا طفل ولا امرأة . وعن هذه المعاملة المنصفة صدر أبو بكر وعمر وعثمان في وصاياهم لأمراء الجيوش الفاتحة، وكانوا حين يودعونهم يخطبون فيهم حاضين على الجهاد في سبيل الله ونشر دينه الحنيف في أقطار الأرض ، وأن يرعوا في معاملة الشعوب المفتوحة ربهم . وكان أبو بكر يطلب إليهم دائماً ألا يخونوا ولا يغدروا ولا يمثلوا بقتيل ولا يقتلوا شيخاً كبيراً ولا طفلا صغيراً ولا امرأة ، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلوا مالا إلا ما يحتاجون إليه لطعامهم ولا يتعرضوا لرهبان النصارى بشيء يؤذيهم . واقتدى به عمر بن الخطاب ، فكان يحث على الجهاد حتى تعلو كلمة الله وينتشر دينه في الأرض ، كما كان يحث على حسن المعاملة للأمم الأجنبية وأن يترفع العرب أنفسهم عن عرض الدنيا . وبالمثل كان يصنع عثمان .

ولكن هذه الشعوب والبلدان التي سميناها لم تذعن للعرب إلا بعد خطوب حربية شديدة وبعد أحداث عسكرية جسام ، فقد ظلت تقاوم حتى قهرتها البطولة العربية واضطرتها إلى الإذعان والاستسلام ، وهي مقاومة حولتها إلى ساحات حربية كبيرة ، كان النصر فيها دائماً حليف العرب لصبرهم في القتال وصدقهم في النزال ، ولأنهم كانوا يطلبون

الاستشهاد ، حتى يدخلوا الجنة من أوسع أبوابها . وكانوا كلما فتحوا بلداً أو انتصروا فى معركة اشتدت بهم حماستهم فطلبوا معركة جديدة مؤمنين بأن الجنة تحت ظلال السيوف . وكان لايزال قوادهم يخطبونهم مستثيرين حميتهم لدينهم ، وكان يقوم فيهم وعاظ كثيرون يزهدونهم فى الدنيا ومتاعها الزائل ، ويرغبونهم فى طلب ما وعد الله به المجاهدين من النعيم الدائم ، مما جعلهم يحرصون على الموت أكثر من حرصهم على الحياة . ويخيل إلى الإنسان أن كل عربى فى الجزيرة أحس فى عمق أن واجبه الأول إزاء ربه لا أن يصلى ويؤدى فروض دينه فحسب ، بل أيضاً أن ينتظم فى صفوف المجاهدين فى سبيل الله وأن يتخذ كل وسيلة لكى يظهر اسمه فى لوحات الشرف ، لوحات الاستشهاد والفوز برضوان الله وقد وضع كل منهم شعاراً نصب عينيه : (ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) . وهو يناضل فى سبيل هذا الشعار قربى إلى الله وزلفى لجنانه ، وأخذت سيول الجيوش الفاتحة تتدفق على العراق والشام ، وأخذت البطولة العربية تتجلى فى أعظم معارضها ومشاهدها ، فى الرجال والنساء اللائى كن يشهدن المعارك محرضات محمسات ، بينما كان الأبطال يدوّون كالنحل بأشعار الحماسة . ولن نستطيع أن نعرض لهذه المعارك وبطولاتها بالتفصيل فى هذا الكتاب المجمل ، ومن أجل ذلك نكتفى بالوقوف عند معركة كبيرة واحدة هى معركة القادسية بالقرب من الكوفة التى فُتحت بعدها للعرب أبوابُ فارس ، وكان سعد بن أبى وقاص الصحابى الجليل يقود الجيش العربى ، وكان رستم بطل الفرس

وقائدهم الفذ يقود جيشهم الضخم الذى أرادوا به أن يقفوا السيل العربى ويحولوا بينه وبين الانبساط والامتداد . وصمم العرب على أن يجتاحوهم حتى تشيع بينهم شريعة الإسلام ، وحتى يهيئوهم لأداء واجبهم الإنسانى العظيم ، وكأن ذلك كان موثقاً بين الله وبين العرب رجالهم ونسائهم ، ومن أروع الأمثلة التى تصور هذا الموثق صنيع الخنساء فى ليلة القادسية وكانت قد هاجرت إليها مع أولادها الأربعة لتشهد جهادهم فى الفتوح وقد حطمتها السن ، وكانت قد اشتهرت فى الجاهلية ببكائها على أخويها صخر ومعاوية ؛ وظلت تلبس الحداد عليهما سنوات طوالا ودمعها لا يرقأ ولا يجف ، ودخلت فى الإسلام وحسن إسلامها ، حتى إذا كانت خلافة عمر احتسبت أفلاذ كبدها الأربعة للجهاد ، وخرجت معهم إلى القادسية ، وسعد معسكر بجيشه ينتظر فى الغد الموقعة الفاصلة ، فتوجهت إلى أبنائها توصيهم وتدلع الحمية لديهم فى قلوبهم ، قائلة : « يا بنى ! إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ؛ ووالله الذى لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد وامرأة واحدة ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله تبارك وتعالى : (يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) ، فإذا أصبحتم غداً سالمين فاغدوا إلى عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين ؛ فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها .. فيمموا (فاقصدوا) وطيسها تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلد والمقامة » . وما كادت الخنساء تستتم كلامها حتى عاهد كل ولد من أولادها نفسه وربه أن يبادر إلى الحرب

حين يسمع نفيرها . وبادروا مبكرين ، وحمل أولهم ، وهو ينشد :

يا إخوتى إن العجوز الناصحه   قد نصحتْنا إذ دَعتْنا البارحه
مقالة ذات بيانٍ واضحه   فباكروا الحرب الضّروس الكالحه
وأنتمُ بين حياةٍ صالحه   أو ميتة تورث غنماً رابحه

وكأنه يشير فى الشطر الأخير إلى قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) وكُتب له أن يصيب ماكان يَصْبو إليه من تجارة وربح كبير ، فقد ظل يقاتل حتى قتل شهيداً . وحمل أخوه من ورائه وهو يهتف :

إن العجوز ذات حزم وجَلَدْ   والنظر الأوفق والرأى السَّددْ
فباكروا الحرب حماة فى العُدَدْ   إما لفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عزّ الأبد   فى جنة الفردوس والعيش الرّغد

وهو يصف جنة الفردوس التى أعدت للمجاهدين بما جاء فى نعتها من قوله جل شأنه فى خطابه لآدم : (وقلنا يا آدم اسكنْ أنت وزوجُكَ الجنة وكُلا منها رَغداً حيث شئتما) ، ومضى يطلب عيشها الرغد ويقاتل فى لهفة على الاستشهاد حتى قتل . وحمل حملتهما أخوهما الثالث وهو يلوّح بسيفه فى وجوه الفرس منشداً :

والله لا نعصى العجوز حَرْفا   قد أمرتنا حَدَباً وعطفا
نصحاً وبرّاً صادقاً ولطفا   فبادروا الحرب الضروس زَحْفا

ولعله يشير إلى الآية الكريمة : (إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار) . ومازال يقاتل الفرس مقدماً غير محجم ومقبلا غير مدبر حتى مات ميتة الأبرار . وحمل أخوهم الرابع ، وهو يرتجز أبياتاً من مثل قوله :

إما لفوزٍ عاجلٍ ومَغْنَمِ أو لوفاةٍ فى السبيل الأكرمِ

واختاره الله بجواره ، فلحق بإخوته . وتلقت الخنساء خبر مقتلهم ، وكأنما كانت فى انتظاره ، فلم تنح عليهم نواحها على أخويها فى الجاهلية ولاصاحت ولا أعولت ، بل لكأنما فرحت لهم واستبشرت ، وإذا هى تقول لمن أبلغوها نعيهم : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم فى معارك الجهاد الشريفة ، وأرجو منه أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

وحمى وطيس المعركة ، وخطب أمير كل فرقة من فرق الجيش العربى أصحابه وحضهم على الصبر فى الجهاد وأن يكونوا كأسود الغاب وأن يسارعوا إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمجاهدين . وتواثق الجند العربى وتعاهدوا للمعركة الفاصلة ، وأخذ القائد العظيم سعد بن أبى وقاص يستثير أهل النجدة من أمثال عمرو بن معديكرب ، وقيس بن مكشوح المرادى ، وعروة بن زيد الخيل ، وبشر بن ربيعة الخثعمى والشعراء من أمثال الشماخ ، وعبدة بن الطبيب ، وربيعة ابن مقروم الضبي ، وعمرو بن شأس الأسدى ، قائلا : قوموا فى الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس ، فذكروهم وحرضوهم على القتال . وأمر سعد القراء أن يقرءوا سورة الجهاد والفتح فى كل كتيبة ، فاطمأنت قلوب الناس وأقبلوا فى حماسة



على الجهاد ، وكبّر سعد ثلاث تكبيرات ، وبرز أهل النجدات والبطولة والبأس فأنشبوا القتال .

وأخذ الجيش الفارسي الضخم يتهاوى تحت أقدام البطولة العربية ، وسالت دماء الأعاجم أنهاراً ، وأنزل الله نصره على المجاهدين فى سبيله بعد أن زلزلوا زلزالا شديداً ، فإذا الأعاجم يولون الأدبار بعد أن تركوا وراءهم ثلاثين ألف قتيل غير آلاف الأسرى وما خلفوا فى معسكرهم من سلاح ومئونة وأداة وعُدّة . وبلغ من فزعهم ورعبهم أن كان المجاهد يدعو الرجل منهم فيأتيه حتى يقف بين يديه فيضرب عنقه ، وحتى إنه ليأخذ منه سلاحه فيقتله به ، وحتى إنه ليأمر الأعجميين أن يقتل أحدهما صاحبه فيصدعان بالأمر رهبة ورعباً . وفخر فرسان العرب وأبطالهم بما أبلوا فى هذا النصر فخراً طويلا من مثل قول بشر بن ربيعة الخثعمى :

تَذَكَّرْ هداكَ اللهُ وقْعَ سيوفنا ... ببابِ قُدَيْسٍ والمَكَرُّ عَسِيرُ
عشيّةَ ودَّ القومُ لو أنّ بعضهم ... يُعارُ جَناحَيْ طائرٍ فيَطيرُ
إذا ما فرغنا من قِراعِ كتيبةٍ ... دَلَفْنا لأُخرى كالجبالِ تَسيرُ

وقُتل رستم قائد الفرس فى المعركة ، وتنازع شرف قتله كثيرون ، ويظهر أن رماحاً كثيرة سقطت عليه حين ضربه قيس بن مكشوح المرادى بسيفه ، فشق رأسه وخر صريعاً يترنح فى دمه . مما جعل غير بطل ينسب هذا الشرف إلى نفسه فى شعره ، وقد سجله قيس لنفسه بمثل قوله :

ولما أن رأيت الخيل جالتْ ... قصدتُ لموقف الملك الهمامِ
فأضرب رأسه فهوى صريعاً ... بسيف لا أفلّ ولا كَهَامِ

وكانت الجزيرة كلها قد تعلق فؤادها بهذه المعركة ، لما كانت ترى فيها من مصيرها ، فإما ينتصر العرب على الفرس إلى الأبد ، وإما ينهزمون — لا قدر الله — إلى الأبد . وكانت لاتزال تتسقط أخبارها تريد أن تعرف ما سيكون من أمرها ، حتى كان الرجل يعرض عليه أمر ، فيقول لا أنظر فيه حتى أرى ما يكون من أمر القادسية . فلما جاءهم النصر العظيم وزفت إليهم بشراه أخذوا يتغنون به رجالا ونساء وكل قبيلة تتغنى ببلاء أبنائها ، تتغنى النخع وغيرها من القبائل اليمنية ، وتميم وغيرها من القبائل المضرية . من ذلك أن امرأة سمعها الناس ليلا على جبل بصنعاء في اليمن ، وهي تتغنى بأبيات تشيد ببطولة قومها النخع في القادسية ، وفيها تقول على لسان أحدهم

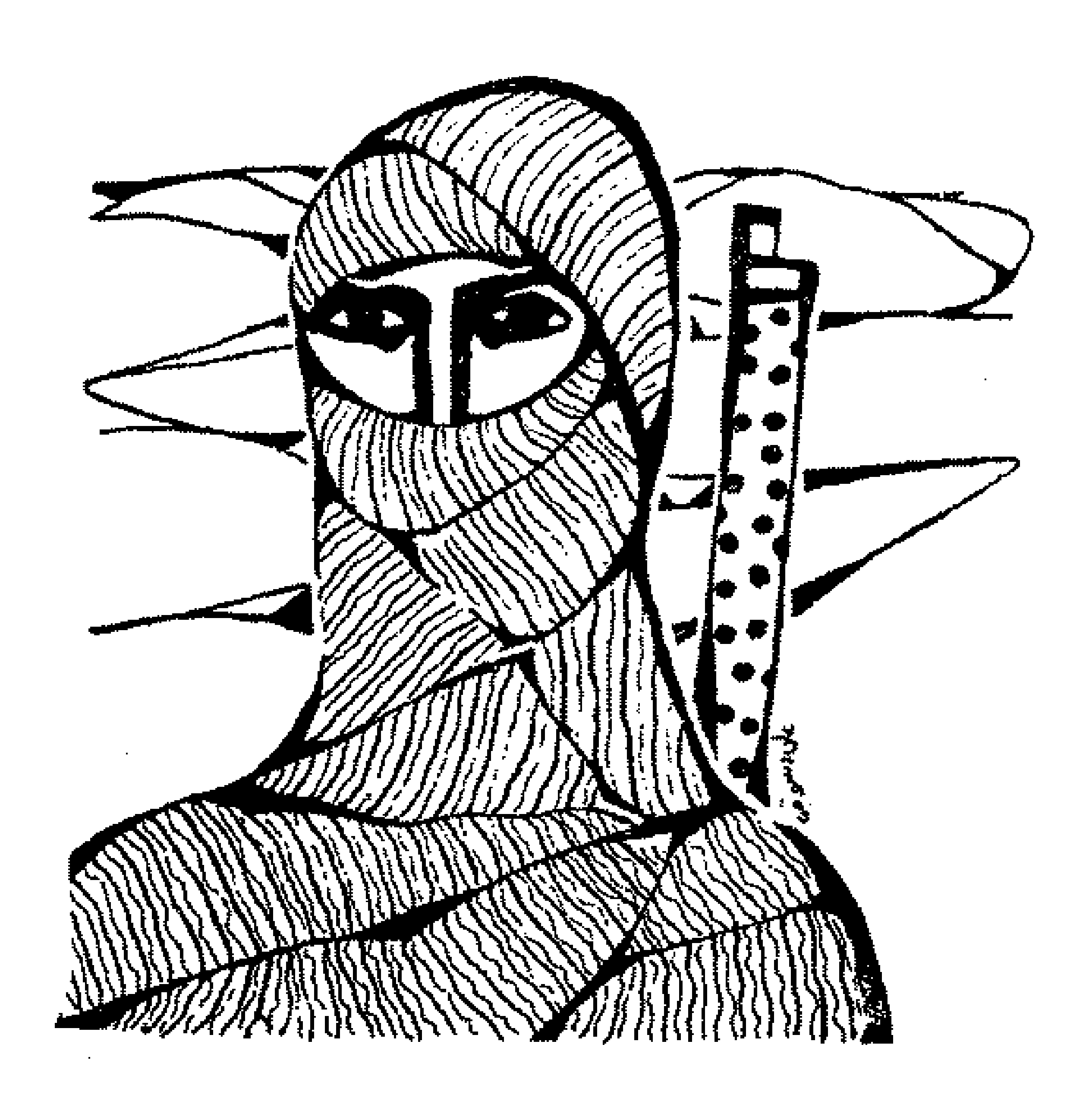
فحيَّتكِ عني عُصْبَةٌ نَخَعِيَّةٌ حِسانُ الوجوه آمنوا بمحمدِ

أقاموا لكسرى يضربون جنوده بكل رقيق الشَّفْرتين مهنَّدِ

وتطايرت في عامة بلاد الجزيرة أغان على هذه الشاكلة تمجد شجاعة المجاهدين وتشيد ببسالتهم واقتحامهم أهوال الحرب في غير خوف ولا وجل ، بل في إقدام لا يفوقه إقدام . ويلحق بهم القاعدون ، كل يريد أن يشارك في شرف الجهاد . ويمضي الجيش العربي بعد القادسية ميمماً إيران ، ويحطم كل مقاومة تلقاه في جلولاء وفي نهاوند وفيما وراءهما من بلدان حتى خراسان ، ويتغنى المجاهدون بانتصاراتهم وبما أنزلوه بالأعاجم من تقتيل ساحق وهزائم منكرة ، وما كشفوه عن كتائبهم من خطوب ومكاره ومتالف مروعة .

وبهذه الروح الغلابة التي لا تقاوم انتصر العرب على الفرس وقوضوا دولتهم في بلادهم ، كما انتصروا على الروم في الشام ومصر وشمال إفريقية ، وكل هذه الفتوح كلفت الجيوش العربية خطوباً شداداً وأهوالاً من المعارك والقتال والصراع والنزال ، وفي كل معركة وكل فتح تتجلى بطولتهم وتتجلى أمجادهم الحربية ، ويتجلى معها ما نظموه من أناشيد حماسية .

وكأنما أريد لهذا السيل الطامي الذي غمر الفجاج والشعاب من أواسط آسيا إلى مصر وشمالي إفريقية أن يتوقف فجأة وعلى غير انتظار فشبت فتنة عثمان التي انتهت بمقتله ، وبايع أهل المدينة علي بن أبي طالب وتطورت الأمور ونشبت الحرب بين علي وخصومه في صفين وانتهت بقبوله التحكيم ، وثار عليه فريق من جيشه لهذا القبول كأنه لا يعرف أنه على حق ، وهم نواة الفرقة المعروفة باسم الخوارج ، وحاربهم وقتلوه غيلة . وانتهت مقاليد الخلافة إلى معاوية ، فجمع الناس ، وأخذ بحكمته يحاول أن يزيل من بينهم نار العداوة والبغضاء التي أججتها حروب صفين ، وخمدت النار في الظاهر ، وظل جمر كثير مستتراً وراء الرماد ، وهو جمر أعد لظهور أحزاب متعددة فإذا الحجاز والقبائل القيسية تلتف حول عبد الله بن الزبير مما أتاح للحزب الزبيري أن يتكون ، وتكون حزب التف حول البيت الهاشمي هو حزب الشيعة الذي كان يتخذ الكوفة مستقراً له ومقاماً منذ خلافة علي واتخاذه إياها حاضرة لخلافته ، وتكون حزب ثالث هو حزب الأمويين أصحاب السلطان ينصرهم ويؤيدهم ويدعو لهم ، وتكوّن حزب الخوارج الذي كان ينكر أن تكون الخلافة مقصورة على أي قبيلة : قريش أو غيرها ، ويرى



أن تكون شورى بين المسلمين يتولاها أكفؤهم وأحقهم بها ولو كان أعجمياً غير عربي حتى تتحقق المساواة والعدالة بين أفراد الأمة .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن البطولة الحربية العربية لم تتمثل فى حزب كما تمثلت فى حزب الخوارج ، وقد تحول كل منهم إلى مجاهد شاكى السلاح يطلب الموت والشهادة فى ميادين الجهاد ، أما جماعاتهم فتحولت إلى كتائب حربية تقبل على الموت بنفوس راضية ، وكأنه الباب الموصد بينها وبين فراديس الجنان فهى تريد اجتيازه حتى تنتقل إلى الملأ الأعلى . ولم يكن يتمنى هذا الانتقال والسرعة فى تحقيقه دون ريث أو بطء رجالهم وحدهم ، بل كان يتمناه أيضاً نساؤهم وكان منهن من يحملن السيف معهن مثل أم حكيم بطلة الأزارقة ، وكانت من أشجع النساء وأجملهن وجهاً . وخطبها جماعة فردتهم ولم تجبهم ، وكانت تحمل على الناس ، وأصحابها يفدونها بالآباء والأمهات ، وهى تصول وتجول وترتجز بمثل قولها :

أحمل رأساً قد سئمت حَمْلَه وقد مَلِلْتُ دَهْنه وغَسْله

ألا فَتًى يحمل عَنِّى ثِقْلَهْ

وهى صورة رائعة للبطولة تصور فيها أم حكيم أمنيتها فى الفوز بالشهادة ومدى ما كانت تحسه من بطء فى تحقيقها ، حتى غدت الحياة أمامها مملة مللا فظيعاً ، وحتى أصبحت تشعر كأن رأسها الذى تريد له أن يفارق جسدها عبئاً ثقيلا تحمله متنقلة به بين صفوف القتال ، وهى تريد أن تتخلص منه ، حتى تنفذ من حياة الدنيا الزائلة إلى حياة الآخرة الباقية .

ومن أكبر أبطال الخوارج قاطبة قطرى بن الفجاءة المازنى زعيم فرقة الأزارقة بفارس ، وقد ظل نحو عشرين سنة يقاتل جيوش الأمويين ، وينتصر عليهم ، حتى قتل بعد معارك عنيفة ، وله أشعار كثيرة يصور فيها بلاءه فى الحرب ، والأمويون يرسلون إليه الحملة تلو الحملة ، وهو لا يريحهم ولا يستريح ، فبين جنبيه بطولة لا تقهر ، وهو يخاطر بنفسه ويقاوم ويدافع ما وسعته المدافعة فى كل شبر من الأرض ، لا يستسلم ولا يلقى السلاح خوفاً من حمام أو موت ، وما يني يدعو نفسه إلى الصبر والثبات بمثل قوله فى حماسيته الملتهبة التى يخاطب فيها نفسه بقوله :

أقول لها وقد طارت شعاعاً ... من الأبطال ويحكِ لن تُراعى

فإنك لو سألتِ بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لم تطاعى

فَصَبراً فى مجال الموت صَبْراً ... فما نَيْلُ الخلود بمستطاعِ

ولا ثوبُ البقاء بثوب عزٍّ ... فيطوى عن أخى الخنع اليراعِ

سبيل الموت غاية كل حَيٍّ ... فداعيه لأهل الأرض داعى

ومن لا يُغْتَبطْ يَسْأَمْ ويَهْرَم ... وتسلمه المنون إلى انقطاعِ

وما للمرء خيرٌ فى حياة ... إذا ما عُدَّ من سقط المتاع

والقطعة تفيض ببسالة قوية لا تعرف ضعفاً ولا فتوراً ولا تردداً ولا إحجاماً ، وهو يصور فيها نفسه فى المأزق الضنك حين لا يبقى من الموت مفر ، فتهلع النفوس وتجزع ، أما هو فلا ينكص ، بل يظل

يقتحم أهوال الحرب مخاطراً مخاطرة جريئة بنفسه . وإنه ليدعوها أن تظل صلبة قوية ، ومم تخاف ؟ أمن الموت ؟ وهل يموت أحد إلا وقد بلغ أجله الذى قدر له فى أم الكتاب ؟ إن الجبن لا يطيل أجلا ولا يؤخر إنساناً يوماً عن يومه الموعود ، وإنه لحرىّ بكل إنسان أن يصبر فى الحرب حتى الموت ، وحتى لا يلحقه عار الفرار والاستسلام المهين ، وكل الناس ميتون ولن يخلد أحد ، وهل الحياة باقية ، حتى يحاول إنسان أن يستطيلها ويستبقيها ؟ وفيم الحرص عليها ، وهى حياة بغيضة ثقيلة ؟ إن الناس جميعاً سيموتون ويأتى الموت على كل الأحياء ، ومن لا يعتبط أو بعبارة أخرى من لم يمت فى عنفوان شبابه مات هرماً قد سئم الحياة حتى ليريد أن يتخلص منها ويستريح .

وإننا لنأسى لبطولة هؤلاء الخوارج إذ أنفقوها فى حرب إخوانهم فى الدين ، وكان حرياً بهم أن ينفقوها فى حرب أعدائهم الحقيقيين من الأمم الأجنبية ، إذن لما انقسم العرب فى أوائل أمرهم صفوفاً تتناحر وتتقاتل ويسفك بعضها دماء بعض ، ولظلوا مقبلين على فتوحهم ، ففتحوا بقية العالم ، وتغير وجه التاريخ .

٤

فى الحروب مع الروم

سحق العرب فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان الروم سحقاً ذريعاً اضطرهم إلى أن يرفعوا أيديهم عن الشام ومصر ، وأخذوا يرفعونها عن إفريقية مكرهين مهزومين مقهورين ، حتى إذا ولى الأمويون تقدموا إلى المحيط الأطلسى وعبروا المضيق إلى إسبانيا حيث صهلت خيول فرسانهم على مشارفها الشمالية . وكان طبيعياً أن يعنى العرب منذ عصر عمر بن الخطاب ببناء أسطول يحمى ثغورهم الممتدة على البحر المتوسط ، وأخذ هذا الأسطول يجوب المياه الشامية والمصرية ، ودفعه معاوية إلى التغلغل فى البحر ، ففتحت قبرص لسنة ثمان وعشرين للهجرة ، وفتحت رودس لسنة اثنتين وثلاثين ، وكسر تمثالها الضخم الذى كان يعد فى العالم القديم إحدى عجائب الدنيا . ونشبت فى البحر من ناحية الإسكندرية لسنة أربع وثلاثين موقعة ذات الصوارى ، بين الأسطول العربى المصرى بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر لعثمان والأسطول البيزنطى الرومى بقيادة إمبراطور بيزنطة قسطنطين بن هرقل ، وإنما سميت الموقعة بذات الصوارى لكثرة ما كان بها من صوارى المراكب ، وكانت عدتها ألفاً للبيزنطيين ، ومائتين للعرب ، وانتصر الأسطول العربى الحديث نصراً مؤزراً ، لم يعد البيزنطيون بعده يفكرون فى غزو الشواطئ الشامية والمصرية والإفريقية . أما العرب فقد ظلت

قلاع أسطولهم وصواريه تنتشر فى البحر المتوسط من حين إلى حين ، وظلوا يغيرون على الجزر الكثيرة المنثورة فيه ويغنمون ويعودون ، على نحو ما صنع الأسطول المصرى بصقلية لسنة تسع وأربعين ، وقد عادوا إلى رودس ففتحوها لسنة ثلاث وخمسين ، واستقروا بها حيناً من الدهر وظل الأسطول المصرى يغدو ويروح على الجزر الصغيرة حتى إذا كانت سنة ٨١ للهجرة أرسى بسفنه على جزيرة قوصرة التى تبعد نحو ستين ميلا من صقلية ، فاستولى عليها ، وكان ذلك إرهاصاً لاستيلاء العرب فى القرن الثالث على الجزيرة الكبيرة .

وظل العرب منذ استيلائهم على الشام لعهد عمر بن الخطاب يغيرون على الروم البيزنطيين فى آسيا الصغرى ، وكأنما كانت حركات أسطولهم إنما يُراد بها أن تسند هذه الغارات وما يتصل بها من غزوات ، وكادت أن تكون سنوية فى بعض الأحيان ، وغالباً ما كانت تحدث فى الصيف لبرودة الجو فى الشتاء ولامتلاء الطرق بالصقيع ، وكان الروم كثيراً ما يولون على وجوههم فارين حتى يصل الجيش العربى إلى الشاطئ المقابل لبيزنطة (القسطنطينية) ولا شيء يرد السيل العارم ، إلا أن يعود إلى منحدره ومصبه . ومن أهم الغزوات لعهد معاوية ، غزوة ابنه يزيد لسنة اثنتين وخمسين ، إذ جهز له جيشاً اكتسح به آسيا الصغرى حتى بيزنطة ، وأعانه بأسطول مخر بحر مرمرة وأجاز بالجيش المضيق ، غير أن الأسوار المنيعة حالت بينه وبين اقتحام العاصمة ، وحدثت على أبوابها بعض مناوشات قتل فيها الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى ، فدفن بأصل السور المحيط ببيزنطة ، ويئس العرب من الفتح فقفلوا

راجعين . وربما كانت أكبر غزوة للقسطنطينية فى العصر الأموى غزوة مسلمة بن عبد الملك بن مروان لها فى سنة ثمان وتسعين ، إذ وجهه أخوه سليمان إليها فى جيش كثيف تدعمه حملة بحرية ، وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها ، فحاصرها حصاراً طويلا : شتا فيه وصاف ، قاهراً أهلها قهراً شديداً ، غير أنه عاد فرفع الحصار حين بلغه نبأ وفاة أخيه ، وكأنما ذهبت أدراج الرياح أمانى الأمويين فى الاستيلاء على بيزنطة عَنْوة فلم يعودوا إلى حصارها ومحاولة فتحها ، ولكنهم ظلوا يغزون فى آسيا الصغرى ، ويقتطعون من أطرافها قرى ومدناً مثل طرسوس وقاليقلا وقيسارية وخَرْشنة .

وفى كل ما أسلفنا من هذه الغزوات البرية والبحرية فى الحقب الإسلامية الأولى كانت البطولة العربية تضطرم فى نفوس الشجعان البسلاء ، يرفدها عتاد لا ينفذ من قوة النفس وصلابتها وعنادها وإحساسها العميق بكرامتها . وفى كل غزوة صغرى وكبرى كانت تلمع أسماء كثيرين ممن اشتهروا بالبأس الشديد ، ويكفى أن نذكر منهم بطلا واحداً هو عبد الله البطال الذى كان على طلائع مسلمة بن عبد الملك ، وقد شهد غزواته وحروبه مع الروم جميعاً ، وأوطأهم خوفاً ورعباً وذلا ، وكان يتلو دائماً : (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) وكان إذا حمى الوطيس يصرخ : أعن الجنة تقعدون ؟ ثم يلقى بنفسه فى نحور الأعداء ، فلا يزال يشق رءوسهم بالسيوف ، ولا يزال يطعنهم بالرماح مقاتلا عن أصحابه ، ذائداً عن رفاقه . وعلى نحو ما كان يكثر من تقتيل البيزنطيين فى المعارك كان يكثر من أسرهم ، ويقال إنه أسر قسطنطين

إمبراطورهم لسنة مائة وأربع عشرة ، وافتدوه بمال كثير . ومازال يذبح منهم كل عام وينحر حتى كانت سنة مائة واثنتين وعشرين للهجرة ، فانهزم الناس عنه فى بعض المواقع وفروا لا يلوون ، وأبى إلا الثبات والإقدام، وأخذ يدفع فرسه فى استبسال ، وسمع عربيًّا ، يقول : واعطشاه فصاح فيه : تقدم ، الرِّى وإطفاء الظمأ أمامك ، وتكاثر عليه الروم ، فخرّ شهيداً . وقد طارت شهرة بطولته فى العصور الإسلامية التالية ، ومع مر الزمن تكونت حول شجاعته أساطير كثيرة هيأت لتأليف قصص متعددة حوله تصور بسالته الخارقة ، وهى فى جمهورها قصص شعبية .

وتظل الحروب بين العرب والروم قائمة على قدم وساق فى العصر العباسى ، وتخبو قليلا فى عصر المنصور ، ثم تشتعل فى عصر ابنه المهدى ، إذ يغير الروم فى أوائل خلافته على سُميساط ، ويصمم على أن يكيلهم الصاع صاعين فيجرد لهم جيشاً ضخماً بقيادة العباس ابن محمد ، ينكل بهم تنكيلا شديداً ، وتتوالى تجهيزاته لهم وبعوثه ، حتى إذا كانت سنة مائة وثلاث وستين أعد لهم جيشاً كثيفاً جعل إمارته لابنه الرشيد واختار لمعاونته طائفة من كبار القواد فأنزل بهم خسائر جسيمة . وفى السنة التالية توغل الرشيد فى آسيا الصغرى ، وافتتح عدة حصون ومضى حتى بلغ مضيق القسطنطينية، غانماً ما لا يكاد يحصى من الدواب والسلاح ، واستنقذ من الأعداء كثيرين من أسرى قومه ، وقتل من العدو نحو خمسين ألفاً ، مما اضطر إمبراطور بيزنطة أن يتعهد لمدة ثلاث سنين بأداء الجزية كل عام : سبعين ألف دينار ، وامتلأ قلبه وقلوب شيعته من الهول والفزع . ويتوفى المهدى فينقض نقفور



إمبراطور بيزنطة العهود ، فقد تولى الخلافة الرشيد وظن ظناً فائلا أنه لا يبلغ من الحزم مبلغ أبيه ، فكتب إليه مطالباً برد ما أداه من جزية فى السنين الماضية ، وما إن يفض الرشيد الكتاب حتى يملأه الغضب فيكتب إليه على ظهره : «بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه ، والسلام » وسار إليه فى سنة ثمان وثمانين ومائة ، فالتقى الجمعان ، وجرح نقفور ثلاث جراحات ، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة بلغت أربعين ألفاً . وفى سنة مائة وتسعين عاد إليه فى جيش جرار بلغ تعداده مائة وخمسة وثلاثين ألفاً غير المتطوعين ، فاخترق آسيا الصغرى ، وسبى سبياً كثيراً وغنم مالا يحصى من الغنائم وافتتح هرقلة إحدى مدنهم الكبرى وخربها . وهال ذلك نقفور ، فتعهد أن يؤدى الجزية صاغراً. ونقض أهل قبرص عهدهم فغزاهم الرشيد وردهم إلى الطاعة. وقد تغنى الشعراء طويلا بانتصاراته على نقفور والروم وفتحه هرقلة ، من مثل قول أشجع السلمى :

برقتْ سماؤكَ فى العدوّ وأمطرتْ هاماً لها ظِلُّ السيوف غمامُ
رأىُ الإمام وعزمه وحسامه جُنْدٌ وراء المسلمين قيامُ
وصلتْ يداك السيف حين تعطّلتْ أيدى الرجال وزلّت الأقدام
وعَلاَ عدوّك يابن عمِّ محمد رَصَدان: ضوءُ الصُّبْحِ والإظلامُ
وإذا تنبّه رُعْتَهُ وإذا غفا سَلّتْ عليه سيوفَكَ الأحلامُ

ويقال إن الرشيد اهتز حين بلغ أشجع هذا البيت فى القصيدة ، وأمر بأن ينثر عليه الدر استحساناً وإعجاباً ، فقد عرف كيف يجسم ما أنزله بالروم وثغور من الرعب الهائل ، وفى الوقت نفسه صور إقدامه وحزمه و بأسه ونفاذ بصيرته وشدة شكيمته ، وكيف جعل أعداءه لايفلتون من الخوف صباح مساء ، بل إن فرائصهم لترعد دائماً ، لما يرون فى مجال الحرب من الرءوس المتطايرة والدماء المسفوحة السائلة .

ويدور الزمن دورة ، وإذا بنا فى العقد الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وإذا المأمون يعلم أن تيوفيل إمبراطور بيزنطة يضع يده فى يد بابك الثائر على الخلافة بأذربيجان ، و يملؤه السخط والغضب ، فيأخذ منذ سنة مائتين وخمس عشرة يقود جيوشاً جرارة يهبط بها على آسيا الصغرى يتقدمه قواده من أمثال أخيه المعتصم وابنه العباس وخالد بن يزيد الشيبانى وجعفر الخياط وعجيف بن عنبسة ، ونزل على أنطاكية والمصيصة وطرسوس ، ووجه ابنه العباس بطائفة من الكتائب إلى ملطية ، أما هو فاتجه بجيشه شمالا إلى المطامير واستولى على حصون كثيرة مثل قره وسندس وسنان بالقرب من هرقلة . وعاد المأمون مظفراً إلى دمشق وبغداد ، وظن تيوفيل أن الفرصة سانحة لانتقامه من تلك الغارات العنيفة على بلاده ، فأغار على طرسوس والمصيصة ، وقتل من أهلهما مقتلة عظيمة ، وبالمثل صنع بخرشنة ، وأسر كثيرين من المسلمين ، وعاد إلى القسطنطينية مبتهجاً ، واستقبل استقبالا حافلا . وعلم المأمون بغارته فاستشاط غضباً ، وأسرع بجيش لسنة مائتين وست عشرة ، فاكتسح به الجنوب الغربى لآسيا الصغرى ، وكان الروم قد استردوا هرقلة ،

ولم يكد جيشه يطل عليها حتى خرج إليه أهلها طائعين مذعنين ، وانساح الجيش فى إقليم المطامير ، والتقى أخيراً بتيوفيل وجيشه فهزمه هزيمة ساحقة ولى على إثرها الأدبار مخلفاً وراءه غنائم كثيرة . وعاد المأمون بجيشه المنتصر إلى دمشق ومنها اتجه إلى مصر فى أوائل سنة مائتين وسبع عشرة لقمع ثورة بها ، وسرعان ما انقمعت واستقرت الأحوال ، وعاد مسرعاً إلى الحدود الرومية الشامية ، فاجتازها ونزل قرب أذنة ، وتقدم الجيش أو كتائب منه إلى حصن لؤلؤة ، غير أن تيوفيل فر منه وأبعد فى الفرار ، فعاد أدراجه دون قتال ، ودون استيلاء على حصون سوى ما كان من تسليم حصن لؤلؤة وسكانه . وفى السنة التالية جهز المأمون جيشاً ضخماً لقتال البيزنطيين ، ونزل به فى أرض الروم بموضع أو نهير يسمى : البُدندون ، وارتعدت فرائص الإمبراطور ، فأرسل إليه يخيّره نظير عودته بجيشه دون قتال ، إما أن يقبل أخذ نفقات جيشه وعتاده وإما أن يقبل فك الأسرى من المسلمين دون فداء ، وإما أن يقبل أن يصلح ما أفسد قومه من ثغور المسلمين على نفقته . وعنف المأمون بالرسول ورده رداً غليظاً ، وتقدمت كتائب تستولى على بعض الحصون ، وسرعان ما لبى نداء ربه ، فنقل جثمانه إلى طرسوس . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن أكبر شاعر تغنى ببطولته وبطولة جيشه وكتائبه وقواده فى تلك الحروب المظفرة هو أبو تمام ، وله يقول فى إحدى مدائحه :

مسترسلون إلى الحتوف كأنما ... بين الحتوف وبينهم أرحامُ

آسادُ موت مُخْدَراتٌ مالها ... إلا الصوارمُ والقَنا آجام

حتى نَقَضْتَ الروم منك بوقعة ... شَنْعاءَ ليس لنقضها إبرام

وقَصَمْتَ عُرْوةَ جمعهم فيها وقد جعلت تفصَّم عن عُراها الهامُ

وهو يشير في القصيدة إلى أن المأمون في حروبه مع البيزنطيين يصدر عن شعور عميق بنصرة الدين الحنيف ضد أعدائه وما يملأ نفوسهم من استعلاء وشراسة وحدة . ويقول إنه يقود جيشاً كثيفاً ، موقناً بدينه ونصره مقدماً لا يلوى على إحجام ، وإن كل شخص في الجيش ليحس كأن بينه وبين ضروب الموت أرحاما متواصلة ، بل لكأنهم جميعاً آساد غاباتها وأجماتها السيوف والرماح ، وقد ظلوا يطعنون بها الروم حتى كأنما لم يعد من الممكن أن ينقضوا هذا النصر المبين الذى قصم ظهورهم ونثر رءوسهم وسحقهم سحقاً .

وتولى الخلافة بعد المأمون أخوه المعتصم ، وكان يصحبه معه في حروبه للروم ، وله فيهم غارات وانتصارات مجيدة ، وبمجرد أن ولى الخلافة أخذ يعنى بجيشه ، فأكثر فيه من المماليك الترك ذوى البأس ، واتخذ لهم معسكراً بعيداً عن بغداد في سامراء ، وجعلها حاضرة له ، وسرعان ما أصبحت مدينة ضخمة . ولم يلبث جيشه أن قضى على بابك وثورته في أذربيجان قضاء مبرماً ، ويقال إن المعتصم كان من أشد معاصريه قوة وإنه جعل يد رجل بين إصبعين من أصابعه فحطمها حطماً. وبينما كان جنده يضيقون الخناق على بابك وجموعه في أذربيجان تراسل مع تيوفيل ، ممنيا له الأمانىّ في الانتصار على المعتصم ، لانشغال جيشه وقواده بحربه ، ولكى يزيده إغراء أرسل إليه طائفة من جنوده ، ولم توافِ سنة مائتين وثلاث وعشرين حتى جهز تيوفيل جيشاً جراراً من مائة ألف مقاتل ، واتجه به إلى أعالى الفرات آملا في الاتصال بثائر

أذربيجان وأصحابه ، وسرعان ما سلمت له ملطية ، وقاومت زبطرة الواقعة في جنوبيها الغربي ، فرميت بالمجانيق وقتل أهلها وسبي نساؤها وأطفالها ، وصاحت امرأة والروم يجرونها في الأغلال : وامعتصماه ! مستغيثة بالخليفة مستنجدة . وبلغته استغاثتها وهو ببغداد ، فصاح : لبيك لبيك ! وأمر توًّا بالنفير للحرب ، فاجتمع له قواده العظام من أمثال محمد بن يوسف الثغري الطائي وأشناس وجعفر بن دينار والأفشين وعجيف ابن عنبسة ، وأخذ في تجهيز جيشه بالزاد والسلاح ، وعبأه ، ثم ركب فرسه في مقدمته وكان قد سأل أي بلاد الروم أمنع ؟ فقيل له عمورية فنقش اسمها على التروس والألوية ، وتنبأ بعض المنجمين بإخفاق الحملة فلم يعرْ تنبؤهم أي اهتمام ، ومضى مسرعاً يريد الانتقام من الروم وردعهم . ونزل بالقرب من طرسوس ، وقسم جيشه حتى يطوقهم من جهات مختلفة ، وجعل الغاية أنقرة في الشمال الشرقي لعمورية ، ومضت أقسام الجيش وكراديسه منزلة بتيوفيل وجنوده هزائم ساحقة ، والتقت في أنقرة وتخربها ودمرتها تدميراً ، ثم اتجهت إلى عمورية ، فحاصرتها خمسة عشر يوماً ، وظلت ترمى أسوارها وأبراجها بالمجانيق حتى حرقتها وهدمتها . واستيئس من بقي بها من الجند والقادة فاستسلموا بعد قتال مرير ، بلغ قتلاهم فيه تسعين ألفاً . وتفرقت كتائب المعتصم وكراديس جيشه في آسيا الصغرى تستبيح مدن الروم وتسبي نساءهم وتأسر رجالهم وتضع في أيديهم وأرجلهم الأغلال والقيود وتوطئهم ذلا وصغاراً ورعباً ، غير ما أخذت من الغنائم التي لا تكاد تحصر . وكان فتحاً مبيناً أفاءه الله على المعتصم والعرب ، مما جعل الشعراء

يهتفون به ملوحين بأيديهم وأشعارهم فى وجوه الروم طويلا ، وأبو تمام أكبر شاعر سجّل هذا الفتح ، بل لقد حول تسجيله له إلى ملحمته الرائعة التى يستهلها بقوله :

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ ... فى حَدّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ

وهو بذلك يعلن أن القوة فوق العقل ، وهل يمكن لعقل أمة أن يأخذ حظه من الحياة والازدهار دون قوة ترعاه وتسنده . وقد مضى يتهكم بنبوءة المنجمين ، ذاهباً إلى أن العلم الصادق إنما هو فى لوامع السيوف لا لوامع النجوم والكتب ، وأخذ يشيد بالانتصار العظيم فى عمورية ، مجسما ما حدث لها من حريق تعالت نيرانه وترامت فى الآفاق حتى كأن الظلام رغب عن لون ردائه الأسود ، أو كأن الشمس لاتزال ساطعة. ويجسّد أبو تمام بطولة المعتصم وما يدلع فى قلوب الروم من الهول والفزع ، فيقول :

لم يَغْزُ قوماً ولم ينهض إلى بلدٍ ... إلا تقدَّمه جيش من الرُّعُبِ

لو لم يقد جَحْفَلاً يوم الوغَى لغَدَا ... من نفسه وحدها فى جَحْفَلٍ لجبِ

فدائماً يسبق جيشه الحربى إلى بلاد العدو جيش نفسى من الخوف والرعب ، ويفكر فى صلابة المعتصم وشجاعته التى لا تعرف ضعفاً ولا خوراً ، وإنما تعرف المضاء والتصميم والقوة التى تهدد كل ما تلقاه وتعرّضه للخطر ، حتى لكأن المعتصم وحده جيش جرار ، ويحيّى فيه نجدته للمرأة الزبطرية قائلا :

لبَّيْتَ صوتاً زِبَطْرِيًّا أَرَقْتَ له
كأْسَ الكَرَى ورُضَابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

فهو قد لبّى صوتها ودعاءها نافضاً عن عينيه النوم حتى ينتقم لها ، ورافضاً رضاب الغيد الحسان حتى يسترد شرفه مهما تجشم من الأهوال وتحمل من الخطوب ويمضى فيتحدث عن المعركة وما كان بها من عراك وجلاد وقتال ودماء سالت أنهاراً ، وتيوفيل يهرب من مكان إلى مكان ومن أكمة إلى أكمة ، يطلب النجاة من أسد الشرى . ويختم أبو تمام قصيدته بل ملحمته بالموازنة بين يوم عمورية ويوم بدر ، فإذا كان اليوم الأخير موقعة فاصلة بين الشرك والإسلام فإن يوم عمورية بدوره موقعة فاصلة بين الروم والعرب ولن تقوم لهم من بعده قائمة ، وستظل وجوههم يغشاها الذل والهوان .

وحتى الآن لم نعرض لبطولات الأسطول العربى وقادته الذين أمّنوا شواطئ الشام ومصر وإفريقية فى العصر العباسى ، وكان هذا الأسطول لايزال يمخر عباب البحر المتوسط ، وقد نشر ألويته ، وهو تارة يرمى على هذه الجزيرة ، وتارة يغير على تلك ، وماتوافى سنة مائتين واثنتى عشرة ، حتى يستولى العرب على جزيرة كريت وتصبح خالصة لهم ، وبعد نحو خمس عشرة سنة ينتزلون عن صقلية علم البيزنطيين ويرتفع مكانه العلم العربى بعد جهود عنيفة ظلت نحو عشرة أعوام متعاقبة . وفى هذه الأثناء كان الأسطول العربى العباسى يقظاً ، وقد رأى قائده أحمد بن دينار بن عبد الله أن يتجه به نحو بيزنطة لعله يلتقى بالأسطول

الروى ، والتقى الأسطولان لسنة مائتين واثنتين وثلاثين للهجرة فى أوائل خلافة المتوكل ، ولم يلبث الأسطول الروى أن دمر نهائياً وفر قائده هارباً ، ولم تسجل كتبنا التاريخية هذه المعركة البحرية وما أبلى فيها ابن دينار قائد البحر وإنما سجلها المؤرخون البيزنطيون ، وإن البحترى لخليق بالثناء حين سجل هذا المجد الحربى لابن دينار وأسطوله فى إحدى مدائحه له ، وقد صوره يتقدم الأسطول ذات صباح فى مركبه الميمون ، والأسطول يقوم بعرض بحرى ، وبعض الملاحين يعتلون أبراج السفن ، والجنود يتأهبون للحرب وقد اصطفوا صفوفاً لتلقى الأوامر من الإشتيام أو بعبارة أخرى من أمير البحر ، ثم يأخذ البحترى فى وصف المعركة يقول :

غدوتَ على الميمون صُبْحاً وإنما	غدا الموكب الميمون تحت المظفَّر
إذا زمجر النوتىّ فوق علاته	رأيت خطيباً فى ذؤابة منبر
يغضّون دون الإشتيام عيونهم	وفوق السماط للعظيم المؤمَّر
وحولك ركّابون للهول عاقروا	كئوس الرَّدَى من دارعين وحُسَّرِ
إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم	ليُقلع إلا عن شِواء مقتَّرِ
صدمتَ بهم صُهْبَ العثانين دونهم	ضراب كإيقاد اللظى المتسعَّر
يسوقون أُسطولا كأن سفينه	سحائب صيف من جَهام وممطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم	إذا اختلفت ترجيع عَوْدٍ مُجَرْجِرِ
تقارب من زحفيهمُ فكأنما	تؤلِّف من أعناق وَحْشٍ منفَّرِ

فما رِمْتَ حتى أجْلَتِ الحربُ عن طُلًى
مُقطَّعةٍ فيهم وهامٍ مطيَّرِ
على حين لانَقْعٌ يطوِّحه الصَّبا ولا أرض تُلفَى للصريع المقطَّرِ

وواضح أن البحترى فى الأبيات الثلاثة الأولى يصور استعراض ابن دينار لأسطوله ولحركته البحرية وإعداده للمعركة الحاسمة ويمضى فى وصفها ، فيقول إن جنود الأسطول العربى مدربون على القتال فى البحر : الدارعين منهم وغير الدارعين ، ودائما ينشطون فى رشق قذائف النار التى تحيل كل ما تمسه إلى ما يشبه لحماً مشوياً طلاه سواد القتار أو الدخان . وسرعان ما نشبت المعركة بينهم وبين الروم صهب العثانين أو بعبارة أخرى حمر اللحى ، وقد صوبوا عليهم قذائفهم المحرقة ، والبحر يزبجر زبجرة عود بجرجر أو بعبارة أخرى زبجرة بعير يهدر بصوته ، وقد تقارب الزحفان العربى والرومى بل التحما التحام وحوش كاسرة متنافرة . ويقول إن ابن دينار مازال يشعل الحمية فى قلوب جنوده حتى محقوا الروم وحتى أجلت الحرب وتكشفت عن طُلًى أو أعناق مقطعة ورءوس مطيَّرة متناثرة . وهى معركة فى البحر لا يرتفع فيها الغبار كما يرتفع فى معارك البر ، ولا يتراءى الصرعى فيها على الأرض بل يغورون فى المياه إلى غير مآب .

ونمضى إلى القرن الرابع الهجرى ونلتقى فيه بسيف الدولة الحمدانى أمير حلب ، وهو أعظم بطل عربى تألق نجمه فى سماء الحروب الرومية ، إذ تحول بجنوده إلى ما يشبه سداً ضخماً يصد سيول الروم . بل لقد تحول

إلى ما يشبه صخرة عاتية تتحطم عليها غاراتهم وحملاتهم ، بل إنه حوّل ديارهم وأوديتهم إلى حرائق تسيل من تحتها دماؤهم المسفوحة ، وكأنما تجسدت فى ضميره البطولة العربية بكل أمجادها الحربية ، وأحس المتنبي كأنما هو الأمل الذى ظلت تمخضه العصور للعرب وظلوا يبحثون عنه طوال أيامهم ولياليهم ، أو قل أحس كأنه منقذ أرسلته العناية الإلهية ليرد عنهم عدوان المغيرين البيزنطيين فى عصر خارت فيه قوى الخلافة العباسية ولم يعد لها حول ولا طول ولا من القدرة شيء . فهبّ هذا البطل يذود عن الحمى والذمار ويدافع عن الديار ، بل لقد مضى يغير على البيزنطيين وينزل بهم هزائم ساحقة وهم يولولون ويندبون ضارعين . ولم يكن له عون فى هذا المجد الحربى الرائع سوى الرقعة الصغيرة لحلب إمارته وما حواليها ، ومع ذلك ظل يقلم أظفار قواد بيزنطة وجيوشها الجرارة ، وظلت سيوفه وسيوف جنوده البسلاء تسيل دماء البيزنطيين أنهاراً . وكان طبيعيًّا أن تمتلىء ساحات حلب وأفنية قصوره فيها بالشعراء الذين جاءوه من كل مكان ليشيدوا ببطولته وبطولة جنوده ولم يلبث المتنبي أن قدم عليه ، وكان قد أعياه البحث عن بطل عربي يرد عن العرب ظلم الحكام الأعاجم المتسلطين على الخلافة فى بغداد ، ويدفع عنهم ما يتعرضون له من غوائل العدوان ، وكأنما رأى فى سيف الدولة وبطشه بالروم من يحقق له أحلامه فى البطولة العربية المفقودة ، وكان هو نفسه فارساً مقداماً ، فأطال المقام عند البطل الحمدانى تسع سنوات طوالا ، يرافقه فى معاركه ، وعليه درعه وزرده ، وبيده سيفه ، وفرسه يصهل ويلوّح بعرفه . ويعود معه بعد كل معركة ا

وقد امتلأ قلبه حماسة وبهجة بالنصر ، فينشده قصائده مصوراً بطولته وبطولة حشوده ، وهي ليست قصائد بالمعنى المألوف ، إنما هي أناشيد حربية تموج بصليل السيوف وحمحمة الخيول ، كما تموج بالحفيظة والحنق على أعداء العروبة البيزنطيين . وهي ليست أنشودة ولا أنشودتين إنما هي مجاميع كبيرة من أناشيد ، سماها الأسلاف بالسيفيات نسبة إلى بطلها المغوار سيف الدولة . ولن نستطيع الوقوف عندها جميعاً ولذلك سنكتفي بالوقوف عند واحدة منها ؛ وهي التي نُظمت في معركة حصن الحَدَث أحد المنافذ إلى بلاد الروم ، وكان البيزنطيون قد خربوه لسنة ثلثمائة وسبع وثلاثين حتى لا يكون شوكة في ظهورهم ، فصمم سيف الدولة في سنة ثلثمائة وثلاث وأربعين على إعادة بنائه ، ووضع الأساس بيده ، وبينما هو قائم على هذا البناء إذا القائد الرومي بِرداس فوكاس يرميه بجيش عداده خمسون ألفاً ، ولم يكن مع سيف الدولة سوى بضع مئات من فرسانه ، واحتدمت المعركة ، وغلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة ، بل لقد دمرتها تدميراً إذ سقط في الميدان ثلاثة آلاف من الروم ، ووقع كثير من البطارقة أسرى وكان ممن سفك دمه ابن بنت برداس وصهره ، أما هو ففرّ بجلده . وكان المتنبي مرافقاً لسيف الدولة ، وأبلى في المعركة بلاء حسناً ، حتى إذا انتهت نهايتها المظفرة الرائعة وقف بين يدى سيف الدولة ينشد هذه القصيدة ، وقد بلغ فيها الذروة في التعبير عن بطولة سيف الدولة وكماته الشجعان وإحساس العرب العميق بالعداء المستعر بينهم وبين الروم يقول في فواتحها :

يكلِّف سيفُ الدولة الجيشَ هَمَّه
وقد عجزتْ عنه الجيوشُ الخضارمُ

يفدِّى أتمُّ الطير عمرًا سلاحَه
نسورُ المَلا أحداثُها والقَشاعمُ

وما ضرَّها خَلْقٌ بغير مخالبٍ
وقد خُلقتْ أسيافُه والقوائمُ

هل الحدَثُ الحمراء تعرف لونَها
وتعلم أيُّ الساقيين الغمائمُ

سَقَتْها الغمامُ الغُرُّ قبل نزوله
فلما دنا منها سَقَتْها الجماجمُ

وكان بها مثلُ الجنون فأصبحتْ
ومن جُثَث القَتْلى عليها تمائمُ

والمتنبى يعجب من تكليف سيف الدولة لكتائبه الصغيرة أن تنهض بهمته فى الحرب، وهى همة أعظم من أن تنهض بها الجيوش الضخمة ، ومع ذلك فإن جيشه القليل يحقق دائمًا من الانتصارات ما يهول ويروع ، ويقول إن نسور الملا صغارها وقشاعمها أو عظامها تفديه بأرواحها لما يخلف لها دائمًا فى المعارك من الأشلاء ، ويقول لو أنها خلقت بدون مخالب قوية تفترس بها صيدها من بغاث الطير ماضرَّها ذلك ، لأن رماح سيف الدولة تبلغها ما تريد وتقدّم

لها ما تطلب من القوت والمئونة . ويتساءل المتنبي هل اللون الأحمر الذى كسا قلعة الحدث تعرفه وتعرف مصدره من دماء الروم التى لطخت حوائطها بلونها القانى ؟ وهل تعلم أى الساقيين سقاها : الغمائم أم الجماجم ؟ ويقول إن السحاب جادها قبل حلول سيف الدولة ، فلما حل بها سقاها من دماء الأعداء ما شفاها مما كانوا أصابوها به من غارات وجراح . ويقول إنه كان بها ما يشبه الجنون ، فأعاذها سيف الدولة بتمائم كثيرة من قتلى الروم أذهبت عنها العلة ، فسكنت وعاد إليها عقلها السليب . ويأخذ فى تصوير جيش الروم وعدده وأسلحته وعديده وتلاقى زحفه مع زحف سيف الدولة ، وأصحابه ، يقول :

أتوك يجرّون الحديد كأنهم ... سَرَوْا بجيادٍ ما لهنّ قوائمُ

إذا بَرَقُوا لم تُعْرَف البِيض منهمُ ... ثيابهمُ من مثلها والعَمائم

خميسٌ بشرق الأَرض والغرب زَحْفُه ... وفى أُذُن الجوزاء منه زمازم

تجمّع فيه كلُّ لُسْنٍ وأمّةٍ ... فما تُفْهِم الحُدّاثَ إلا التراجم

فلله وقتٌ ذوّب الغِشَّ نارُه ... فلم يبق إلا صارمٌ أو ضُبارِمُ

تقطّع مالا يقطع الدِّرْعَ والقَنا ... وفرّ من الأَبطال مَنْ لا يصادم

والمتنبي يصور فرسان الروم يثقلهم ما يلبسونه وتلبسه خيلهم من الحديد والفولاذ ، فعلى رءوسهم الخوذ ، وعلى أجسادهم الدروع وفى أيديهم التروس الضخمة ، وعلى الخيل السروج والحديد المصفح الذى لا تكاد تبين منه قوائمها ، وكلّ هذا الحديد يلمع تحت الشمس

فلا يكاد الإنسان يميز بين سيوفهم وما يلبسونه ، إذ كل ذلك حديد يلمع ويبرق . ويقول إن خميسهم أو جيشهم ملأ بكثرته الآفاق شرقاً وغرباً حين أخذ يزحف للمعركة ، كما ملأها بعجيجه وضجيجه حتى لكأنما زمازمه أو أصواته بلغت عنان السماء وارتفعت إلى أذن الجوزاء وهي أصوات أخلاط من البيزنطيين ومن وراءهم من الأوربيين ، أصوات مستعجمة متناكرة فيما بينها فما يتفاهم المتحدثون منهم إلا بمترجمين ينقلون عنهم . ويقول عجباً : لله يوم هذه المعركة ، فقد محا تمويه من يتظاهرون بالبطولة والفروسية ، وكأنه نار صهرت التمويه والغش والخداع فلم يبق ولم يثبت سوى الصارم أو السيف القاطع والضبارم أو الأسد الشجاع ، أما السيف الكليل فقد تقطع وأما الجبان فقد ولّى الأدبار . ومضى المتنبي يصور سيف الدولة وبسالته في جحيم المعركة ، وهو يشهد بقلب ثابت الانتصار العظيم وهزيمة العدو أمامه ، وخيله تلحق به في ذرى الجبال طاعنة فاتكة ناثرة جثثه وأشلاءه ، يقول :

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ كأنك في جَفْن الردى وهو نائمُ

تمرُّ بك الأبطال كَلْمَى هزيمةً ووَجْهك وضَّاحٌ وثَغْرك باسمُ

ضممتَ جَناحَيْهم على القلب ضَمَّةً

تموت الخَوافي تحتها والقَوادِمُ

بضربٍ أتى الهاماتِ والنَّصْرُ غائبٌ

وصار إلى اللَّبَّات والنَّصْرُ قادمُ

حَقَرْتَ الرُّدَيْنيّات حتى طرحتها
وحتى كأن السيف للرمح شاتمُ

ومن طلب الفَتحِ الجليل فإنما مفاتيحه البِيضُ الخِفافُ الصوارم

نثرتهمُ فوق الأُحَيْدِبِ نثرةً كما نُثِرتْ فوق العروس الدراهم

تدوس بك الخيلُ الوُكورَ على الذُّرَى
وقد كثرت حول الوكور المطاعم

تظن فِراخُ الفُتْخِ أنك زرتها بأُمّاتها وهْيَ العِتاق الصَّلادم

إذا زلقتْ مَشَّيْتَها ببطونها كما تتمشَّى فى الصَّعيد الأَراقم

وهو تصوير رائع لبطولة سيف الدولة وأنه كان يمتلك أعظم معانى البسالة الحربية وأرفعها ، فقد مثله المتنبي لا يهاب الموت ولا يرهبه فى أشد المواقف وأخطرها تعرضاً له ، وقال إنه دائماً يقتحم مواضعه مخاطراً بروحه ، غير أن الموت يعرض عنه حتى لكأنه لا يبصره ؛ بل كأنه يغفل عنه بنومه ؛ مع أنه فى جفنه وهو محيط به محدق بشخصه ، لكثرة ما يزج بنفسه فى معارك القتل ومعاطبه ، ويقول المتنبي إنه بلغ من جلادة سيف الدولة فى المأزق المتلاحم لهذه المعركة الخطيرة أن كان يمر به أبطال الروم جرحى مهزومين مدحورين ووجهه لا يكلح ولا يعبس ، بل يستبشر ويبتسم واثقاً بالنصر . ويصف قدرته الحربية ، فيقول : إنه لف جناحى جيش الروم على قلبه لفة منكرة شدّ فيها عليهم شدة صادقة ؛ فإذا المتقدمون منهم والمتأخرون يخرون صرعى وقد صورهم

بالخوافى والقوادم فى جناحى الطائر وهى الريشات القصار والطوال كأنه لم يبق منهم باقية . ويقول إنه كان يطعنهم بضرب لا يصيب الرءوس فحسب ، بل يسقط فى النحور ؛ وكأنما كان النصر قد طال غيابه وأهلت تباشيره. ويستمر فى وصف بطولة سيف الدولة؛ فيقول: إنه طرح الرماح الردينية فلم يحارب بها ؛ وحارب بالسيوف الماضية التى تعلوها بالطعن القريب المميت ، مما جعل السيوف تشعر بالاستعلاء على الرماح وتنالها بالتصغير والتهوين ؛ ويقول حقاً أن السيوف الخفيفة القاطعة هى التى تفتح أقفال النصر المغلقة . وكأنما تجسدت فى نفس المتنبى فرحته وفرحة سيف الدولة وفرسانه بهذا النصر الماثل ؛ فإذا هو يتصور تناثر جثث الروم وأشلاءهم على جبل الأحيدب بجوار مدينة الحدث عرساً لذلك المجد الحربى وزفافاً، وما الأشلاء والجثث إلا الدراهم التى تعوّد العرب فى أعراسهم أن ينثروها على العروس فرحين مبتهجين . ويقول إن خيول سيف الدولة كانت تصعد وراء المنهزمين فى ذرى الجبال تقتل فيهم ، حيث وكور النسور ، وكأنما تهدى إليها طعاماً وزاداً لا ينفد ، حتى لتظن فراخها الصغيرة أنك زرتها بأمهاتها ، لما تقدم إليها من أقواتها ، وأنت إنما زرتها بجيادك الكريمة القوية الصلبة التى تدربت على صعود الجبال ، حتى إذا تصعب السير عليها زحفت على بطونها كما ترحف الأفاعى فى المرتفعات . وعلى هذا النحو كان المتنبى يتغنى ببطولة سيف الدولة هذا الغناء الملتهب الذى يشعل الحماسة فى نفس كل عربى ، وهو غناء صدر عن قلب شاعر عربى عاش يمجد البطولة العربية حتى إذا رآها مصورة فى شخص سيف الدولة وما ينزل

بالروم من الموت الفاتك أخذ يرتل تلك الأناشيد مذيباً فيها كل ما ضم عليه جناحه من قوة وكل ما رآه فى سيف الدولة من شجاعة وبأس شديد، وكأنما وهب نفسه لحرب الروم ، فقد ظل يجالدهم ويصارعهم وينزل بهم القتل المدمر والهزائم المنكرة، لا يصرفه عن ذلك شيء من مشتهيات الدنيا ومتاعها، فمتاعه ومشتهاه جهاد الروم وما يحتمله فى ذلك من العناء الشاق والجهد العنيف . ويحكى عنه أنه لم يكن يأبه لمجالس الأنس كعادة الحكام فى عصره ، ولانشغاله الدائم بتدبير الجيش وممارسة الحرب وأنه دعاه ذات ليلة بعض أقربائه للاستماع إلى الغناء من بعض المغنين البغداديين المشهورين الذين ألموا بحلب حاضرته ، فقال لداعيه : « أنا مشغول بقرع الحوافر عن المزاهر » وهى كلمة تلخص بطولته وأنه عاش كما قال المتنبي آنفاً يقف نفسه أمام الموت وقد فغرفاه ، بل إنه ليقتحم عليه جفنه غير عابئ به ، وكأنما قهره وغلبه وفرض عليه سلطانه ، فسلطه على أعدائه . ويقال إنه غزا الروم أربعين غزوة ، وقدر له أن يموت على فراشه حتف أنفه ، وقد أوصى بأن يوضع خده فى قبره على لبنة جمعها مما علق بثيابه ودروعه وسلاحه من غبار غزواته للروم ، لبنة طاهرة تشهد فى لحده على بلائه فى الجهاد وأنه لم تنتكس له راية ، ولا تأبت عليه غاية .

وليس المتنبي وحده الذى نظم الأناشيد المدوية فى بطولة سيف الدولة ، فقد وفد عليه أكثر الشعراء النابهين فى الشام والعراق يتغنون ببسالته من مثل الوأواء الدمشقى والسرى الرفاء والناشى والزاهى والخالديين ، وأنبه من هؤلاء جميعاً ابن عمه أبو فراس الحمدانى الناشيء فى حجره

وزوج أخته ورفيقه فى حروبه ، وكان فارساً لا يجارى كما كان شاعراً لايبارى . وحدث أن أغار الروم على حلب فى سنة ثلثمائة وإحدى وخمسين غارة شعواء ، وانسلت منهم كتيبة أو كتائب إلى منبج فى الطريق إلى حاضرة سيف الدولة ، وكان يتولاها أبو فراس فدافع دفاع الأبطال إلى أن أثخن بالجراح وأسره الروم ، وأخذوه إلى خرشنة ، ثم نقلوه إلى القسطنطينية ، وبقى فى هذا الأسر نحو أربع سنوات ، وهو يكاتب سيف الدولة ليسرع فى فدائه حتى إذا كانت سنة ثلثمائة وخمس وخمسين خرج ثلاثة آلاف أسير إلى خرشنة ، افتداهم جميعاً ابن عمه . وله أشعار كثيرة نظمها فى هذا الأسر تسمى بالروميات ، وهى تفيض بالحنين إلى أمه وأهله ووطنه ، كما تفيض بالجلد والحماسة والقوة وكأنه صخرة تتفتت عليها الأحداث والخطوب مهما تكن مريرة ، ومهما تكن غصصاً وشجى فى الحلوق ، وربما كانت خير قصيدة تصور هذه البطولة النفسية رائيته ، وفيها يقول :

وإنى لجَرَّارٌ لكل كتيبةٍ معوَّدةٍ ألَّا يُخِلَّ بها النَّصْرُ

أُسِرْتُ وما صحبى بعُزْلٍ لدى الوَغَى ولا فَرَسى مُهْرٌ ولا ربُّهُ غُمْرُ

ولكن إذا حُمَّ القضاءُ على امرئٍ فليس له بَرٌّ يقيه ولا بَحْرُ

يمنون أن خَلَّوا ثيابى وإنما علىَّ ثيابٌ من دمائهم حُمْرُ

وقائم سيفى فيهمُ اندقَّ نَصْلُهُ وأعقاب رمحى فيهمُ حُطِّمَ الصَّدْرُ

سيذكرنى قومى إذا جَدَّ جِدُّهم وفى الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البَدْرُ

ونحن أناسٌ لا توسُّطَ عندنا ... لنا الصَّدْرُ دون العالمين أو القبرُ

تهون علينا في المعالي نفوسنا ... ومن يخطب الحسناء لم يُغْلِها المَهْرُ

وأبو فراس يصور نفسه قائداً مقداماً يقود الجحافل الجرارة إلى النصر ويدافع حمية عن أسره ، فقد أسره العدو بغتة ، وإنه لمن قوم شجعان يستبسلون فى القتال والنزال ، وهو نفسه بطل ، بل فارس له فرسه القارح ، وله نباهته بين الفرسان ، فهو ليس غمراً مغموراً أو مجهولا ، بل هو فارس مشهور ، ولكن لا دافع للقضاء النازل . ويلتفت إلى الروم وهم يمنون عليه بأنهم لم يخلعوا عنه ثيابه إكراما له ، فيقول وقد أخذته الأنفة والعزة إن ما على ثيابى من حمرة تلطخها إنما هى خضاب من دمائهم ، وكم اندقت فى قلوبهم وأجسادهم ورءوسهم نصول سيوفه ، وكم تحطمت فى صدورهم صدور رماحه . ويقول إن قومه سيذكرونه بل سيفتقدونه حين ينازلون الروم ويحمى الوطيس على نحو ما يفتقد الناس البدر فى الليلة الظلماء . ويقول إننا أناس يتعمقنا الشعور بالكرامة والاعتداد بالنفس ، إما الصدر وإما القبر ، وإننا لنبذل نفوسنا فى سبيل المحامد راضين شأننا شأن من يخطب الحسناء فإنه يبذل فى سبيلها أى مهر وأى صداق ، وفرق بعيد بين بذل المال وبذل الروح الغالية .

وكانت هناك بطولات أخرى فى المغرب العربى : فى إفريقية والأندلس ، فمنذ وضع العرب أقدامهم هناك وهم فى صراع مع أعدائهم ، وأحسوا أنه لابد لهم من أساطيل تحمى شواطئهم . ولا نكاد نمضى فى

القرن الرابع حتى نجد عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس يعنى ببناء أسطول ضخم ، ونافسه فى ذلك الفاطميون منذ ظهروا فى المهدية بالقرب من القيروان بتونس ، فقد مضوا يعنون ببناء أسطول لهم وإعداده حتى لا يأخذهم الروم على غرة ، وكان لهذا الأسطول أثر كبير فى فرض سلطانهم على المغرب الإفريقى أولاً ثم فى امتداد هذا السلطان إلى مصر ثانياً.

ويتولى الخلافة المعز فاتح مصر ومؤسس القاهرة ، ويقدم عليه من قرطبة ابن هانئ الأندلسى وهو لايزال فى المهدية ، فيستخلصه لنفسه ، ويصبح شاعره الذى يشيد بكل أعماله ، ويرى أسطوله ، فينظم قصيدة طويلة فى وصفه ، وفيها يقول :

أما والجوارى المنشآت التى سَرَتْ
لقد ظاهرتْها عُدَّةٌ وعَدِيدُ

وما راع ملك الروم إلا اطلاعها تنشَّر أعلامٌ لها وبُنود

عليها غمامٌ مكفهرٌ صَبِيرُهُ له بارقاتٌ جمَّةٌ ورعودُ

من القادحات النار تضرَم للصَّلَى
فليس لها يوم اللقاء خمودُ

إذا زفرت غيظاً ترامت بمارجٍ كما شُبَّ من نار الجحيم وقود

فأفواههن الحاميات صواعقٌ وأنفاسهن الزافرات حديد

لها شُعَلٌ فوق الغِمار كأنَّها دماءٌ تلقَّتْها ملاحفُ سودُ

وليس لها إلا الرياحَ أعِنَّةٌ   وليس لها إلا الحبابَ كَدِيدُ

وواضح أن ابن هانئ يفتتح أبياته مقسما بسفن هذا الأسطول الذى تغمره المهابة والجلالة قائلا إن عليها عدة ضخمة من السلاح وعديداً ضخماً من الجنود ، ويقول إنها بكثرتها و بموكبها الرائع فى البحر المتوسط وهى تنشر أعلامها وقلاعها وسحب دخانها و بروقها اللامعة ورعودها القاصفة قد ألقت الفزع فى قلب ملك الروم . وإنها لمن قادحات النار الحامية التى تشوى الوجوه والتى تظل مشتعلة أعظم اشتعال يوم اللقاء ، قاذفة بالحمم والشعل لا تفتر ، وكأنما يداخلها غيظ وحنق ملتهب حتى لكأنها نار الجحيم التى تغلى كالمهل . وإنها لتلفظ النار صواعق ترسلها على العدو حتى تأتى عليه ، وإن أنفاسها لمقامع ملتهبة من حديد ، وإن شعلها المحمرة لتتساقط على المياه وكأنها دماء تتساقط على ملاحف سود ، ملاحف الماء فى الليالى الداجية . وإنها لتعدو مسرعة ، وكأنها خيل تعدو على أرض صلبة و بأيدى فرسانها أعنتها يحثونها على العدْو السريع ، ولا أعنة ولا خيل ، ولا أرض صلبة أو كديد ، إنما هى الرياح تدفعها هذا الدفع الحثيث .

٥

فى الحروب الصليبية والمغولية

لا نكاد نبلغ أواخر القرن الخامس الهجرى حتى تدوّى فى أوربا الغربية صيحات البابا إربان الثانى بإشعال الحروب الصليبية لاستخلاص الديار المقدسة من أيدى المسلمين ، وترددت مع صيحاته صيحات القسس فى كل مكان وانعقد مجمع كليرمونت المشهور وفيه منحت صكوك الغفران لكل من يحمل الصليب وينهض لتخليص بيت المقدس ، واستجاب الأوربيون من كل قطر من شمالى أوربا إلى جنوبيها ، من الدانمارك إلى إيطاليا ، ملبين هذه الصيحات للاشتراك فى الحروب الصليبية يتقدمهم كثير من الأمراء مثل جودفرى دوق اللورين الأدنى وأخوه بلدوين وبوهمند النورماندى الإيطالى وابن أخته تانكرد وريموند كونت تولوز بفرنسا ، وأخذت هذه السيول تنحدر إلى بيزنطة مكونة نحو مائة ألف مقاتل .

وبينما أوربا تتجمع هذا التجمع الضخم إذا البلاد العربية منقسمة على نفسها ، وإذا هى قد بلغت مدى بعيداً من الضعف والانحلال ، وكان أكثر الشاطئ الشامى بيد الفاطميين حكام مصر ، وكانت دولتهم قد أخذت تتردى فى تدهور خطير ، وكان قسم كبير من ديار الشام يتبع السلاجقة حكام العراق وإيران ، وكانوا قد أقبلوا من خراسان منذ أكثر من قرن ومدوا سلطانهم على آسيا الصغرى ،

ولم يلبثوا أن استحدثوا نظام الأتابكة وهو أن يكون مع كل حاكم منهم لبلد أتابك أو بعبارة أخرى قائد يدبر أمر بلده ، وسرعان ما ازداد نفوذ هؤلاء الأتابكة وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين ؛ وبذلك تفككت أوصال الدولة السلجوقية الضخمة وتفتتت قوتها العظيمة .

فلما جاء الصليبيون بجموعهم الحاشدة لم يجدوا أمامهم قوات تبطش بهم فلا السلجوقيون محتفظون بكيانهم القوى القديم الذى أذلوا به بيزنطة ودفعوها من آسيا إلى أوربا ، ولاالفاطميون محتفظون بشيء من قوتهم القديمة يلقون به هذا الوباء الصليبي . ونزل الصليبيون آسيا الصغرى وأخذوا يستولون على حصون السلجوقيين دون مقاومة تذكر ، وتسلل بلدوين إلى حوض الفرات الأوسط ، واستولى على الرُّها ، وسارت بقية السيل إلى الشام فاستولت على أنطاكية بعد مذبحة عظيمة ، وتوالت مذابح الأيدى الآثمة فى البلدان والحصون حتى طرابلس . واتجه السيل إلى بيت المقدس وكان بيد مصر ، وجاهدت الحامية وأهلها جهاداً مستميتاً ، حتى لم يبق فى القوس منزع ، ودخلها جودفرى وجنوده ، وسرعان ما أصبح للصليبيين أربع إمارات : الرها بيد بلدوين وأنطاكية بيد طنكرى (تانكرد) وطرابلس بيد ريموند وبيت المقدس بيد جودفرى ؛ ومات فخلفه أخوه بلدوين ، ففتح عكا وبيروت وصيدا . ولم يبق لمصر فى الشاطئ الشامى سوى صور وعسقلان ، وبعد سنوات سقطت صور . وظلت مصر وأتابكة الشام يناوشونهم ، ولم تستطع قواهم المهيضة أن ترد السيل إلى قراره ، وبلغت القلوب الحناجر . وبينما الظلام يعم المنطقة إذا أتابك عظيم من أتابكة السلاجقة هو عماد الدين زنكى يتنبه

إلى أن الداء يكمن فى تقطع البلدان المجاورة للصليبيين شيعاً ، وأنه لن تستأصل شأفتهم إلا إذا تجمعت قوى تلك البلدان فى قبضة قائد حازم ، تسدّد لهم ضربات قاصمة. ولم يلبث أن ركز لواء سلطانه على الموصل ثم بسطه على كثير من مدن الشام مثل حلب وحماة وحمص وبعلبك ودمشق ، وأخذ يكيل للصليبيين ضربات قاضية مستولياً على كثير من الحصون ، حتى إذا كانت سنة خمسمائة وتسع وثلاثين استولى على مدينة الرها بعد قتال مرير . وبذلك محا عار هذه الإمارة التى أقامها الصليبيون على الفرات ، وكان لذلك رنة فرح شملت جميع المسلمين يتقدمهم الشعراء الذين أخذوا يشيدون بهذا النصر المبين ملوحين بأيديهم فى وجوه الصليبيين ، منذرين ومتوعدين على شاكلة قول شاعره ابن القيسرانى :

هو السيف لايُغْنيك إلا جِلاده وهل طوّق الأَملاك إلا نِجادُهُ
سَمَتْ قِبْلَةُ الإسلام فخراً بطَوْله
ولم يك يسمو الدين لولا عماده
فياظفراً عمَّ البلاد صلاحُه بمن كان قد عمَّ البلاد فسادُه
غداة كأَن الهامَ فى كل قَوْنَسٍ كمائمُ نبتٍ بالسيوف حَصاده
فلا مُطْلَقٌ إلا وشُدَّ وَثاقُه ولا مُوثَقٌ إلا وحُلَّ صِفادُه
ولا منبرٌ إلا ترنَّح عودُهُ ولا مصحفٌ إلا أنار امتداده
فقل لملوك الكفر تُسْلِمُ بعدها ممالكها إن البلاد بلادُهُ

كذا عن طريق الصبح فَلْيَنته الدُّجَى

فيا طالما غال الظلام امتداده

وابن القيسرانى يشيد بالسيف رمز القوة الذى لا يحمى البلاد ولا يصونها سواه ؛ وقد أعز فى يوم الرها قبلة الدين الحنيف وملأها خيلا وتيها بفضل حامله عماد الدين زنكى الذى أعلى شأن الإسلام ومجده بما حقق من ظفر محا طغيان الصليبيين على الفرات ، وهو محو لم يتم إلا بإزهاق نفوسهم وقطع رءوسهم وحصادها حتى لكأنما كانت أكمام نبات أينعت وقطفت . وتكاثرت أسرى الصليبيين وأخذتها الأغلال والقيود فى حين فكت القيود والأغلال عمن كانوا فى سجونهم من المسلمين . وإنه ليتهدد ملوك الصليبيين بأن ما حلّ بالرها سيحل بهم ، فيصبحون بين قتيل وأسير ، وخير لهم أن يلقوا عن يد مستسلمين رادين البلاد إلى أهلها ارتداد الدار إلى صاحبها ومالكها ؛ وإلا فسيحيق بهم ما حاق بإخوانهم فى الرها . وإنه ليهيب بالظلام أن ينحسر عن تلك البلاد وينكشف عن سفوحها ووديانها حتى تنير عليها أضواء الصباح البهيج . وبينما عماد الدين جاد فى حروب الصليبيين إذا يد آثمة تمتد إليه فى الظلام لسنة خمسمائة وإحدى وأربعين ، ويبلغ الكتاب أجله . ويقتسم ابناه : غازى ونور الدين إمارته ، ويستقل غازى بالموصل ، ويستقل نور الدين بحلب ويقع عليه عبء جهاد الصليبيين ، ويعاود جوسلين صاحب الرها القديم الحلم بعودتها ويبدد حلمه نور الدين ، ويأخذ فى الاستيلاء على كثير من الحصون ، ويجهز صاحب أنطاكية جيشاً جراراً من الصليبيين

لحربه : وتدور عليه وعلى جيشه الدوائر ويسقط فى الميدان صريعاً ، وتسيل دماء الباغين أنهاراً . ويتعالى تكبير المسلمين وتهليلهم . ويستلهم ابن القيسرانى بائية أبى تمام السالفة فى معركة عمورية ، منشداً قصيدة ملتهبة ، يقول فى تضاعيفها :

هذى العزائم لا ما تدَّعى القُضُبُ

وذى المكارم لاما قالت الكتبُ

أغرتْ سيوفك بالإفرنج راجفةٌ

فؤاد روميّة الكبرى لها يَجِبُ

غضبتَ للدين حتى لم يفتك رضا

وكان دين الهدى مرضاته الغَضَبُ

والنَّبْل كالوَبْل هَطَّالٌ وليس له

سوى القِسِيِّ وأَيْدٍ فوقها سُحُبُ

فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجبٍ

يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقبُ

وائذنْ لموجك فى تطهير ساحله

وإنما أنت بَحْرٌ لجُّه لَجِبُ

وهو يشيد بعزائم نور الدين حين نكصت العزائم والهمم من حوله أما هو فقد مضى يحطم جيوش الصليبيين ، بطلا من أبطال الجلاد

والجهاد ، وقد أنزل بالروم صاعقة رجف لها فؤاد رومية دار بابواتهم الذين أغووهم على تلك الحرب الشعواء وما يسفك فيها من دماء . ويقول إن نور الدين غضب للدين الحنيف غضبة ضارية ، فإذا خيله تملأ ساحات الحرب ، والنبل يهطل من سحب الأقواس كأنه مطر منهمر ، ويهيب بنور الدين أن يخلص المسجد الأقصى من أيدى الصليبيين وأن يدفع بأمواج جيشه لتطهيره من أدرانهم ، وقد أخذ يبدو للعيان أنه المنقذ المرموق لتطهير البلاد من شرهم المستطير .

وفى هذه الأثناء قدمت الحملة الصليبية الثانية ومعها الملكان كونراد الألمانى ولويس السابع الفرنسى ، وقد مزق السلاجوقيون جيش كونراد فى آسيا الصغرى وفتكوا بجيش لويس السابع ووصلا مع فلول جيشهما إلى بيت المقدس ، ثم ارتحلا إلى غير مآب . ومضى نورالدين يشن الغارات على الصليبيين الشماليين فاتحاً القلاع والحصون ، وأذعنت له دمشق بالطاعة . وكانت عينه مصوَّبة نحو مصر وخاصة بعد أن استولى الصليبيون على آخر بلد لها بالشام : عسقلان ، وبعد أن ظهرت منهم نوايا لغزوها ، وكان قد استقر فى نفسه أن تتوحد كل البلدان العربية المحيطة بهم حتى يطوّقوا شمالا وشرقاً وجنوباً . ولم يلبث ضرغام وشاور أن اقتتلا فى القاهرة على الوزارة وفزع إليه شاور مستنجداً ، فأنجده بحملة على رأسها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الأمور، وتتجسم لهما خيانة شاور واستعانته بالصليبيين ، ويدخلان مصر وينقذانها منهم . ويقتل شاور ، ويتولى شيركوه الوزارة شهوراً ويتوفى فيخلفه صلاح الدين ، وسرعان ما يتوفى الخليفة الفاطمى العاضد ،

فينقل صلاح الدين الخلافة من الفاطميين إلى العباسيين . وتصبح وحدة البلاد العربية المحيطة بالصليبيين حقيقة ماثلة . ولا يلبث نور الدين أن يلبي نداء ربه سنة خمسمائة وتسع وستين فيحمل العبء صلاح الدين ويعيد للبلاد الشامية والمصرية وحدتها . وأخذ ينزل ضرباته بالصليبيين ، وما توافى سنة خمسمائة وثلاث وثمانين حتى يشدد الخناق عليهم فتسقط قلاعهم وحصونهم بيديه واحدة فى إثر أخرى . وتلتقى إحدى سراياه فى شرق حيفا بجماعة من الداوية والإسبتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين ، وتنتصر عليهم السرية انتصاراً حاسماً يلقى فيه قائد الإسبتارية حتفه ؛ ويستولى صلاح الدين على مدينة طبرية ، ولا يلبث أن يلتقى بجموع الصليبيين فى تل حطّين ، ويلتحم القتال ويحمى الوطيس . وحال الليل بين العسكرين حتى إذا كان اليوم الثانى حمل المسلمون وصاحوا صيحة رجل واحد : الله أكبر ، وألقى الله الرعب فى قلوب الصليبيين ، وقتلت منهم مقتلة عظيمة . وأحاط المسلمون بهم من كل جانب يقتلون ويأسرون ، وأخذوا الصليب الأعظم : صليب الصلبوت . وكان فتحاً عظيماً هلك فيه جمهور هذا الجيش الصليبى الضخم ووقع فى الأسر قادته وزعماؤه : جاى لوزيجنان صاحب بيت المقدس وأخوه أماريك وجيرار مقدم الداوية وهنفرى صاحب تبنين وريجنالد صاحب الكرك والشوبك . وبلغ من كثرة الأسرى والقتلى أنه من كان يشاهد القتلى يظن أنه ليس وراءهم أسرى ، ومن كان يشاهد الأسرى يظن أنه ليس وراءهم قتلى . وبلغ من كثرة الأسرى أن كان الواحد منهم يباع بثلاثة دنانير . ليعمل عبداً مملوكاً . ولم يكن هم صلاح الدين إلا ريجنالد

صاحب الكرك والشوبك إذ كان قد صنع أسطولا فى أيلة (العقبة) لغزو مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكاد ينفذ عزمه لولا أن باغته فى البحر الأحمر أسطول مصرى قضى على أسطوله . وكان قد وقّع صلحاً مع صلاح الدين ومر به جماعة من المصريين فغدر بهم وقتلهم . ولذلك كله أهدر صلاح الدين دمه وطعنه بنفسه طعنة مصمية . واستولى صلاح الدين عقب هذا الفتح المبين على كثير من مدن فلسطين ولبنان مثل نابلس وقيسارية وحيفا وصيدا وبيروت وبيت جبريل (بئر سبع) ولم يبق فى كل هذه الأنحاء سوى الكرك والشوبك وصور . وزحف صلاح الدين على بيت المقدس ، ورماها بالمنجنيقات وضيق على من بها من الصليبيين حتى استسلموا راغمين فى شهر رجب سنة خمسمائة وثلاث وثمانين ، ودخل صلاح الدين بجيشه إلى المدينة بين التهليل والتكبير والضجيج بالدعاء . ولعل فتحاً لم يظفر من الأدب نثره وشعره ، بما ظفر به هذا الفتح منذ حروب سيف الدولة والمعتصم مع الروم ، إذ كان الصليبيون قد استولوا على القدس منذ تسعين سنة واستيئس الناس من عودته ، فلما عاد إليهم شعروا شعوراً عميقاً بأن صلاح الدين وجيشه ردوا إليهم فردوسهم المفقود ، وجاءوا من كل حدب إلى صلاح الدين يتغنون بنصره وبلائه وما فتح الله على يديه وأيدى جيشه فى حطين ثم فى القدس الشريف ، وللعماد الأصبهانى سينية رائعة أنشدها صلاح الدين يذكر فيها هذا الفتح الجليل ، وفيها يقول :

حططتَ على حطّين قدر ملوكهم
ولم تبق من أجناس كفرهمُ جنسا

بواقعةٍ رجت بها الأرض جيشهم
دمارًا كما بُسَّتْ جبالهم بَسَّا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم
ولم ترض أرض أن تكون لهم رَمْسَا

سبايا بلاد الله مملوءةٌ بها
وقد شُريتْ بَخْساً وقد عُرضت نَخْسَا

يطاف بها الأسواق لا راغبٌ لها
لكثرتها كم كثرةٍ توجب الوَكْسا

والعماد يصور ما نزل بأمراء الصليبيين من ذل وهوان فى يوم حطين وكيف مزِّقت جموعهم كل ممزق ، وزُلزل جيشهم زلزالا شديداً ، بل لكأنما فتّتت جبالهم تفتيتاً ، وقد تناثرت جثثهم وأشلاؤهم وأصبحت مأدبة كبيرة للذئاب ، وكأنما لم ترض أرض أن ينزلوا ثراها وتخط لهم قبور فيها . وقد تكاثرت سباياهم ، حتى ليعرضها النخاسون بثمن بخس لم يسبق له مثيل ، وإنهم ليطوفون بها الأسواق والناس معرضون عنها لكثرتها كثرة من شأنها أن توجب الوكس والكساد . ويقول ابن سناء الملك شاعر مصر لعهد صلاح الدين مهنئاً والبهجة تملأ صدره :

قمت فى ظلمة الكريهة كالبد ر سناءً والنور يسطع وَهْنَا
لم تلاق الجيوش منهم ولكـ نَّك لاقيتهم بلادًا ومُدْنا

وتصيدتهم بحلقة صيد ... تجمع الليث والغزال الأغنّا
وجرت منهمُ الدماءُ بحاراً ... فجرت فوقها الجزائر سفنا
وحوى الأسر كل مَلْك يظن الـ ... ـدهر يَفْنَى وملكه ليس يَفْنَى
وتهادتْ عرائس الملك تُجْلى ... وثمار الأملاك منهن تُجْنَى
قد ملكتَ البلاد شرقاً وغرباً ... وحويت الآفاق سهْلًا وحَزْنا

وابن سناء الملك يستهل الأبيات بأن صلاح الدين يبلغ من بطولته وشجاعته أن ترى وجهه متهللا بالنصر مستبشراً كأنه البدر يسطع فى دجنّة الظلام، وهو ينزل ضرباته المتلاحقة لا على جيوش الصليبيين فحسب ، بل على مدنهم وحصونهم ، فإذا هى تفتح له أبوابها ، ويتصوره وفى يده أسراهم من الشجعان والنساء كأنه صائد ماهر يصيدهم بشباكه ، ويتعثرون فيها لا يستطيعون فكاكاً ولا خلاصاً . أما دماء قتلاهم فقد استحالت بحاراً وأنهاراً تعلو فيها جثثهم وكأنها جزائر وسفن متحركة ، وقد استسلم ملوكهم خاسئين مدحورين ، ولم يغن ملكهم عنهم شيئاً . وأقبلت على صلاح الدين بلدان الشام تتهادى إليه وكأنها عرائس فى جلوة الفرح البهيج ، وإن ثمار الأملاك لتلتقط منها وتقتطف اقتطافاً ، وإن صلاح الدين لخليق بما ملك من شرق البلاد وغربها وحزونها وسهولها ، ملكاً تصفق له البلاد طرباً وفرحاً ، ويقول الحسن الجويني البغدادى نزيل مصر :

هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما
لها سوى الشكر بالأفعال أثمانُ

أَضْحَتْ ملوكُ الفَرَنج الصِّيد فى يدهِ
صَيْدًا وما ضعفوا يوماً وما هانوا

تسعون عاماً بلاد الله تصرخ وال
لإسْلام أنصارُه صُمٌ وعميانُ

للناصر ادُّخِرتْ هذى الفتوح وما
سَمَتْ لهم همم الأَملاك مذ كانوا

لو أن ذا الفتح فى عصر النبىِّ لقد
تنزَّلتْ فيه آياتٌ وقُرْآنُ

فالله يبقيك للإسلام تحرسه
من أن يضام ويلقى وهو حيران

والقصيدة كلها إشادة بالفتح وبصلاح الدين على هذا النمط ، وهو يقول إن هذا الفتح خليق بأن يكون كفتوح الأنبياء الملهمين ، وإن الثناء عليه ليعلو على الأقوال والألفاظ ، وإنه خليق بأن يدفع إلى أفعال عظيمة تماثله ، ويقول إنه أسر ملوك الفرنج العاتين ، الذين طالما شمخوا بشجاعتهم حتى التقوا به ، فإذا هو يعصف بهم عصفاً شديداً، بعد أن ظلوا سادرين فى عتوهم تسعين عاماً ، والقدس وغيرها من القلاع والحصون تصرخ وتستغيث ولا مغيث ولا مجير ، ويقول إن هذه الفتوح نعمة ادخرها الزمان لصلاح الدين ، ولم يكن ملك ولا أمير قبله تتطاول إليها همته ، ولو أن فتح القدس حدث فى عصر الرسالة

لنزلت فيه آيات قرآنية تشيد به وتمجده تمجيداً عظيما ، ويدعو الله أن يبقيه للإسلام حارساً وحامياً له من أن يلحقه أى ضيم أو هوان .

ومضى صلاح الدين فى جهاده فاستسلمت له الكرك والشوبك ، ولم يبق للصليبيين سوى صور وطرابلس وأنطاكية . وفى هذه الأثناء كان البابا يواصل استصراخه : فتكونت الحملة الصليبية الثالثة بقيادة الملك فردريك الألمانى ، وفيليب ملك فرنسا ، وريتشارد ملك إنجلترا . واتخذ فردريك طريق البر إلى بيزنطة ونزل آسيا الصغرى بجموعه ، وبينما هو يعبر نهيراً فيها سابحاً ابتلعه اليم وتفشت الأوبئة فيمن معه ، وقدمت منهم فلول إلى إنطاكية ثم طرابلس . واتخذ فيليب وريتشارد طريق البحر المتوسط ونزلا فى صور ، ويشتركان فى حصار عكا وتعود إلى أيدى الصليبيين ثانية كما تعود حيفا ويافا ، ورأى ريتشارد أن الاستيلاء على بيت المقدس الذى جاءت من أجله الحمله أضغاث أحلام ، فطلب من صلاح الدين الصلح ووضع أوزار الحرب لمدة ثلاث سنوات ، ولم ير صلاح الدين بأساً فى ذلك إعداداً لمعركة فاصلة يقضى فيها على الصليبيين قضاء مبرماً ، ولم يلبث ريتشارد ، وكان قد سبقه فيليب ، أن رحل عن البلاد إلى غير رجعة . وما هى إلا أشهر معدودة حتى يلبى صلاح الدين ، وكان بدمشق ، داعى ربه فى شهر صفر لسنة خمسمائة وتسع وثمانين ، ويصلى عليه الناس أرسالا ، وهم يبكونه بدموع غزار . وكان قد وزع دولته الواسعة بين أبنائه وعمهم العادل ، وأخذ العادل يعمل على إعادة توحيدها ثانية ؛ ولا نصل إلى سنة ٥٩٦ حتى تعود إليها وحدتها تحت لوائه ، غير أنه عاد فقسمها بين أولاده ،



إذ جعل مصر لابنه الكامل محمد ودمشق والديار الشامية لابنه المعظم عيسى ، أما البلاد الشرقية حتى نهر الفرات فجعلها لابنه الأشرف موسى وبذلك ملك هو وأبناؤه البلاد ودانت لهم العباد. وخفت حدة الحروب الصليبية ، إذ تحولت إلى مناوشات إلا قليلا ، وجاءت فى أثناء ذلك إمدادات من أوربا ولكنها لم تصنع شيئاً ، حتى إذا كانت سنة ستمائة وخمس عشرة أعد الصليبيون، يتقدمهم صاحب عكا، أسطولا ضخماً نزلوا به فى دمياط ، ووضعوا فى أهلها السيف قتلا وأسراً ، وعلم السلطان الكامل فاستنفر أخويه المعظم عيسى والأشرف موسى للجهاد وبادر لقتالهم ، واستقرت أقدامهم بدمياط نحو ثلاث سنين ، حاولوا بعدها الوصول إلى المنصورة ، وكان فيهم ثمانمائة من الخيالة غير آلاف الرجالة ، وأحدقت بهم عساكر الكامل وأخويه موسى وعيسى ، وعصف بأسطولهم أسطول المسلمين ومنعت عنهم المؤن ، وأخذت الجيوش المصرية والشامية والموصلية تفتك بهم فتكاً ذريعاً ، مما جعلهم يلقون عن يد وهم صاغرون وخرجوا إلى البحر وما وراءه خاسئين ، وصور ذلك البهاء زهير شاعر مصر لعهد السلطان الكامل ، إذ يقول له من قصيدة طويلة :

بك اهتزَّ عِطْفُ الدين فى حُلَلِ النَّصْر
ورُدَّتْ على أعقابها مِلَّةُ الكفرِ

وما فرحت مصرٌ بذلك وحدها
لقد فرحتْ بغداد أكثر من مصر

فمنْ مبلغٌ هذا الهناءَ بمكةٍ
ويثرب ، ينهيه إلى صاحب القبر

سددت سبيل البحر والبرّ عنهمُ
بسابحةٍ دُهْمٍ وسانحةٍ غُرِّ

أساطيل ليست فى أساطير من مضى
بكل غرابٍ راح أفتك من صقر

وباتت جنود الله فوق ضوامرٍ
بأوضاحها تغنى السّراة عن الفجر

ورويتَ منهم ظامئ البيض والقنا
وأشبعت منهم طاوىَ الذئب والنّسْر

ولا زلت حتى أيد الله حزبه
وأشرق وجه الأرض جذلان بالنّصْرِ

والبهاء زهير يصور تهلل الدين الحنيف بظفر السلطان الكامل ودحره للصليبيين وانتكاسهم على أعقابهم ؛ ويقول إنها فرحة لم تسعد بها مصر حدها ، بل سعد بها العالم الإسلامى جميعه فى بغداد وفى منازل الوحى بمكة والمدينة ؛ وإنه لحرى أن يهنأبه الرسول عليه السلام ، فقد حمى السلطان بيضة الإسلام من الصليبيين وطهره فى دمياط منهم ومن أوزارهم . ويقول إنه طوق العدو بحراً وبراً ، فحرق أسطول المسلمين

أسطوله ، وسدت مراكبه عليهم الطريق البحرى كما سدت الخيل الغر طريقهم البرى ، وإن غررها وحجولها البيضاء لتضيء حتى لتغنى السارين ليلا عن ضياء الفجر . وقد أطفأ بهم غلة السيوف والرماح وتعطشها إلى دمائهم كما أشبع بجثثهم وأشلائهم جياع الذئاب والنسور والعقبان . وظل ينازلهم حتى استخلص منهم دمياط وحتى ولوا على وجوههم مقهورين إذ أيد الله بنصره المؤمنين وكتب الخذلان والخسران على أعدائهم الصليبيين . ويصور ابن عنين شاعر دمشق هذا الجيش اللجب للصليبيين وما سُدد إليه من ضربات المسلمين التى جعلته يركع على قدميه منهاراً ويقارن بين صنيع السلطان الكامل والمسلمين بأسراهم إذ عفوا عنهم وردوا إليهم حرياتهم وبين ما كان الصليبيون يرتكبون فى دمياط وفى مدن الشام وحصونه من الذبح والتقتيل والتحريق ، وإنه ليقول مفتخراً بهذا النصر العظيم :

سَلوا صَهواتِ الخيل يوم الوَغَى عنا

— إذا جُهلت آياتنا — والقنا اللُّدْنا

غداة لقينا دون دمياط جحْفَلاً

من الروم لا يُحْصَى يقيناً ولا ظَنّا

فما برحتْ سُمْرُ الرِّماح تنوشهم

بأَطرافها حتى استجاروا بنا مِنَّا

سقيناهمُ كأساً نفتْ عنهم الكرَى
وكيف ينام الليل من فقد الأَمنا
لقوا الموت من زرق الأَسنة أحمرًا
فألقوا بأَيديهم إلينا فأحسنَّا

وابن عنين يفاخر فى أول هذه الأبيات ببسالة العرب التى تعرفها أدوات الحرب من الخيل والرماح اللدن اللينة النافذة يوم التقى الجيشان : الجيش العربى وجيش الروم الذى لا يكاد يحصى ، وقد أسرع شجعان العرب ينوشونهم ويقتلونهم بأطراف الرماح ويذيقونهم بأسهم كأساً مريرة يتجرعون منها ما ينفض عن عيونهم الكرى ليلا ، وهل ينام من يتقلب على أشواك الخوف والرعب . ومازال الجيش العربى يفتك بهم فتكاً ذريعاً ، حتى استسلموا صاغرين من هول الحرب وما سقنا إليهم فيها من الموت الأحمر المخيف .

وكانت هذه الحملة الخاسرة درساً للصليبيين ، فظلوا سنين متعاقبة لا يمر بخواطرهم أن يتجمعوا فى حملة جديدة ، حتى إذا كانت أواخر سنة ستمائة وسبع وأربعين وسوست إليهم شياطينهم أن يعودوا إلى غزو دمياط والديار المصرية وما أن ألم أسطولهم بها حتى خرج منها أهلها وتركوها خاوية على عروشها . وكان قائد الحملة لويس التاسع ملك فرنسا فتقدم بجموعه إلى المنصورة ، والتقى بجيش توران شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية ، وكان غائباً فى الشام ، وطال القتال بين

الفريقين شهراً ، وضعف حال الصليبيين لانقطاع المؤن عنهم ووقوع وباء فى خيلهم ، وعزم لويس على الرجوع إلى دمياط ، وتصادف أن وصل توران شاه فى أول شهر المحرم سنة ثمان وأربعين ، وعلم بمقصد لويس ، فدهمه هو وجيشه ليلا ، وأخذ جنوده يتخطفونهم قتلا وأسراً ، وغنموا منهم مالا يوصف كما يقول المؤرخون وظفر أسطول المسلمين بأسطولهم ، وأسر لويس التاسع فى جماعة فرسانه فى منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط ، وأنزل فى مركب بالنيل لتنقله إلى المنصورة ، وأحدقت به مراكب المسلمين تُضرب فيها الصنوج والطبول ، وفى البر الشرقى الجيش المصرى يسير فى صياح وضجيج ، وفى البر الغربى الفلاحون والعامة فى لهو وسرور بهذا الفتح العظيم ، والأسرى تقاد فى الحبال وفيهم أمراء وكونتات أو أشراف . وأحصيت عدة الأسرى فكانوا نيفًا وعشرين ألفاً حبسوا بالمنصورة ، وخصصت بسجن لويس التاسع دار من دور الدولة تعرف بدار ابن لقمان ، وهى الدار التى كان ينزل فيها فخر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء كلما جاء إلى المنصورة فى عمل يتعلق بوظيفته ، وعين للويس حارس يحفظه هو الطواشى صبيح . ولم يلبث أن طلب الدخول فى الصلح والعودة إلى بلاده على أن يسلم دمياط ويسلم معها خمسمائة ألف دينار ، وخرج على وجهه مع بقايا جيشه خاسئاً مدحوراً . ومضت نحو عشر سنوات ، فإذا نفسه تحدثه أن يعاود الكرة للهجوم على البلاد الإسلامية وينزل تونس ، وترد إلى مصر أخبار بأنه إنما يريد السير إليها ، ولا يلبث ابن مطروح أحد شعراء مصر النابهين حينئذ أن يتهدده ويتوعده ، وينصب أمام عينيه سجنه بدار ابن لقمان

وما ينتظره من سوء المصير ، يقول هازئا به ساخراً منه سخرية لاذعة :

قُلْ للفرنسيس إذا جئته	مقالَ صدقٍ من قئولٍ فَصِيحْ
آجرك الله على ما جَرَى	من قَتْلِ عُبَّادِ يسوعَ المسيحْ
أتيتَ مصر تبتغي مُلْكَها	تحسب أن الزمر ياطبلُ ريح
فساقك الحَيْنُ إلى أدْهَمٍ	ضاق به عن ناظريك الفَسيح
وكلّ أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضَّريح
خمسون ألفاً لا يُرَى منهمُ	إلا قتيلٌ أو أسيرٌ جريح
وفّقك الله لأمثالها	لعل عيسى منكمُ يستريح
إن كان باباكُمْ بذا راضياً	فرُبَّ غِشٍّ قد أتى من نصيح
وقُلْ لهم إن أضمروا عودةً	لأخذِ ثأرٍ أو لقَصْدٍ صحيح
دارُ ابن لقمانَ على حالها	والقَيْدُ باقٍ والطواشي صَبيح

وهو يستهل تقريعه للويس التاسع بأنه مرسل له بكلمات صادقة ، وتتوالى الكلمات ، وكأنها أفاع تطوق عنقه ، وأول أفعى دعاؤه له بحسن الأجر والثواب على ما أنزله بعباد المسيح من الصليبيين أمثاله من القتل والذبح وقطع الرقاب . والأفعى الثانية تهكمه بما أراد من الاستيلاء على مصر ، يحسب أن ذلك قاب قوسين منه ، فإذا هو ضرب من المستحيلات دونه حزّ الأعناق والإلقاء في غياهب السجون مع الأغلال والقيود

على نحو ما ساقه الموت إلى سلاسل محبسه فى دار ابن لقمان حيث ضاقت عليه آفاق الأرض بما رحبت ، وتلك هى الأفعى الثالثة . والأفعى الرابعة تنكيله بأصحابه إذ ساقهم بحسن تدبيره ، بل بقبحه ، إلى القبور والسجون زرافات ووحداناً ، حتى ليبلغون خمسين ألفاً . ويحيط عنقه بأفعى فظيعة من التهكم ، إذ يدعو له أن يوفقه الله إلى أمثال تلك الحملة حتى يستريح عيسى من جماعات الصليبيين ، ويقول له إن كان البابا راضياً عن حملاتكم فقد غشكم وغبنكم ورب غبن يسوقه نصيح . ويرفع أمام عينيه دار ابن لقمان وقيده وحارسه الأمين . ويتوجه إلى الملك الصليبى بالخطاب شاعر تونسى قائلا :

يا فرنسيسُ هذه أختُ مصرٍ فتأهَّبْ لما إليه تصيرُ
لكَ فيها دار ابن لقمانَ قبرٌ وطواشيكَ منكرٌ ونكير

وكان هذا فألا حسناً ، إذ مات لويس على أسوار تونس وهو محاصر لها ، فارتد جيشه على أعقابه كسيراً دون حرب أو قتال . وكأنما خابت جميع آمال الصليبيين ، فلم يعودوا يفكرون فى حملات ولا فى إغارات . وما نصل إلى سنة ستمائة وثمان وخمسين حتى يستنقذ منهم الظاهر بيبرس إنطاكية ويمضى فى استنقاذ كثير من البلدان والحصون مثل يافا والمجدل وطرطوس . ومضى فى إثره السلطان المنصور قلاوون يستنزل الصليبيين من كثير من حصون الشام ، وافتتح طرابلس فى سنة ستمائة وثمان وثمانين ، واستولى على كثير من القلاع المجاورة لها ، وخلفه ابنه خليل فاستولى على صور وصيدا . وسقطت عكا آخر معاقل الصليبيين

فى سنة ستمائة وتسعين بعد أن لقنتهم جيوشنا وأبطالها درساً لم ينسوه ، وبعد أن بذلوا ألوف الضحايا بل مئات الألوف فى غير طائل ، وبعد أن تحملوا من الشقاء والتعاسة مالا يدرك ولا يوصف . وكان طبيعياً أن تتكاثر أناشيد الانتصار بعد سقوط عكا ، وأن يبتهج الشعراء بالنصر مع المبتهجين من مثل الشهاب محمود ، وله من قصيدة طويلة يهنئ فيها السلطان الأشرف خليل بهذا الفتح العظيم :

الحمد لله زالت دولة الصُّلُبِ　　وعزَّ بالسيف دينُ المصطفى العربى

مابعد عكا ، وقد هُدَّت قواعدها　　فى البحر ، للشرك عند البرِّ من أرب

كانت تخيُّلُها آمالنا فترى　　أن التفكر فيها أعجب العجب

سوران : برٌ وبحر حول ساحتها　　دارا ، وأدناهما أنأى من القُطُب

مصفَّح بصفاحٍ حولها أكَمٌ　　من الرماح وأبراجٌ من اليلَبِ

مثل الغمائم تهدى من صواعقها

بالنبل أضعاف ما يُهْدَى من السحب

ففاجأتها جنود الله يقدمها　　غضبان لله ، لا للملك والنَّشَبِ

فأصبحت وهى فى بحرين مائلةٌ

ما بين مضطرمٍ نارًا ومضطربِ

تسنَّموها فلم يترك تسنُّمها　　فى ذلك الأُفق برجاً غير منقلب

والشاعر يحمد الله ويثنى على آلائه ونعمه ، فقد امحت من الأراضى المقدسة دولة الصليبيين ، وعزّ الدين الحنيف ، وإنه لعزّ ما فوقه عز فقد سقطت عكا ، وهدمت قواعدها الملاصقة للبحر ، كما هدمت أسوارها الملاصقة للبر ، وهو ما يفوق كل خيال ، إذ كان يحيط بها سوران يستديران من حولها فلا يستطيع أحد إليها نفوذاً ، سور البر وسور البحر المصعدان فى السماء حتى ليظن من يراهما أنهما أبعد من القطب منالا ، وعلى كل منهما صفائح السلاح وآكام الرماح وأبراج من اليلب أو التروس تحمى وتدافع وترسل النبل وصواعقه وكأنها غمائم ممطرة ترعد وتبرق بشعل الموت وسهامه . ويقول الشهاب إنه هاجمها بجيشه طلباً للثواب لا لمال ولا لملك رقعة من الأرض ، وحاصرها بحران : بحرها المضطرب بأمواجه وبحر السلطان خليل المضطرب بسيوفه ورماحه ونباله ، وقد علا جند الله أسوارها وقلبوا بروجها وجعلوا عاليها سافلها .

ويذكر الشهاب فى القصيدة نار المجانيق ، ويقول إنها كانت ناراً عظيمة تغلغلت فى البروج وتعالت فى أركان السماء علوّاً أخمد كل ما كان يعتلج فى صدر الدين الحنيف من كرب وغصص . وما زال الأشرف وجيشه يقتل فى الصليبيين ويأسر ، ولم يفلت منهم إلا قليل ركبوا البحر المتوسط ، ورجعوا إلى أوطانهم ليحدثوا أهلها بأخبار تلك الواقعة وكيف كانت مجزرة للصليبيين قضت عليهم قضاء مبرماً حتى كأنهم لم يكونوا شيئاً مذكوراً .

وحتى الآن لم نتحدث عن الحروب المغولية ، ومعروف أن الطوفان المغولى أخذ يمتد من الصين لسنة ستمائة وثمان عشرة متجهاً غرباً ،

مكتسحاً أمامه ، بقيادة جنكيزخان ، كل ما يعترضه من جيوش ودول وبلدان ، فلا أمراء التركستان ولا أمراء خوارزم وإيران استطاعوا أن يصدوا تياره أو حتى يقفوه قليلا ، فالطوفان كان جارفاً عاتياً ، ومات جنكيزخان لسنة ستمائة وأربع وعشرين وخلفه أبناؤه يفتحون بقية المدن فى إيران ومدن القوقاز وحصونها، وكلما ألم بحصن سلم حرسته مفتاحه لهم أو اقتحموه اقتحاماً . وامتد الطوفان بقيادة هولاكو حفيد جنكيزخان إلى العراق ، وحدثت الطامة الكبرى إذ سقطت بغداد عاصمة الخلافة العباسية لسنة ستمائة وست وخمسين ، ويقال إنه استمر فيها القتل وسفك الدماء بضعة وثلاثين يوماً ، وإنه بلغ عدد من قتلهم المغول أو التتار ثمانمائة ألف أو يزيدون . ومضى الطوفان يكتسح بلاد العراق بلدة إثر أخرى ، واتجه إلى الشام فاستسلمت له حلب، وتلتها البلاد الشامية تسلم مفاتيحها وأقفالها للتتار ، وحسب الناس كأن شيئاً لا يمكن أن يردهم عن مصر وما وراءها من بلاد المغرب ، وكانت مصر حينئذ تتزعم العالم العربى فى حربه مع الصليبيين ، وتوشك أن تقضى عليهم القضاء الأخير ، فكان طبيعياً أن تعرف خطورة الموقف وأن تستعد لكبح جماح هذا الطوفان وصده لاعنها فحسب ، بل أيضاً عن البلاد الشقيقة الشامية والعراقية، ورده إلى مقره ومصدره . وخرجت من مصر الجحافل المصرية لسنة ستمائة وثمان وخمسين ، يقودها السلطان قطز وظهيره بيبرس البندقدارى . وعلم المغول بخروج تلك الجحافل ، فأعدوا لها ما استطاعوا من قوة، والتقى الجيشان الضخمان فى عين جالوت بفلسطين بين بيسان ونابلس ، واقتتلا قتالا عنيفاً ، استماتا فيه واستبسلا

حتى كتب الله النصر للمسلمين ، وانكسر التتار ، وولوا الأدبار ، بعد أن قتل المصريون والشاميون منهم مقتلة عظيمة ، وقتل قائدهم كتبغا ، واعتصمت منهم طائفة بتل مجاور لمكان الموقعة ، فأحدقت بهم العساكر وأفنوهم قتلا . وتبع بيبرس فى جماعة من الشجعان والفرسان فلولهم المهزومة إلى أطراف البلاد يقتل فيهم . وفتحت البلاد الشامية أبوابها للجيش المنصور ، وتعقبهم بيبرس حتى حلب ، ووصل السلطان قطز دمشق مؤيداً منصوراً واستقبله أهلها استقبالا حافلا ، وأخذوا ينثرون عليه كثيراً من أشعارهم وأناشيدهم .

والبطل الحقيقى لهذه المعركة هو بيبرس البندقدارى ، الذى أبلى فيها بلاء حسناً ، ومضى وراء التتار المنهزمين حتى كسح سيلهم من الشام جميعه ، حتى أبوابه العليا فى حلب ، وبذلك انحسر طوفانهم وسيوله . وقد ولى سلطنة مصر والشام فى نفس العام ، وعهده يعد من أزهى عهود المماليك ، وقد تلقب بالسلطان الظاهر ، ورأينا آنفاً حملاته على الصليبيين وتوجيهه إليهم ضربات قاصمة . أما التتار فقد كان دائماً لهم بالمرصاد ،ووافته الأنباء فى سنة ستمائة وإحدى وسبعين بأنهم يعدون العدة لغزو الشام ، فزحف إليهم بجيش جرار ، وعرف أنهم يتجمعون شرقى نهر الفرات ، فخاضة إليهم بعسكره ، وأنزل بهم هزيمة ساحقة كهزيمة عين جالوت ، وتوافد عليه الشعراء يهنئونه بهذا النصر المبين مشيدين بجرأته وجرأة جيشه فى خوض بلجج الفرات وخوض بلجج دماء الأعداء إلى الظفر على شاكلة قول الشهاب محمود :

سِرْ حيث شئت لك المهيمن جارُ
واحكمْ فطوع مرادك الأقدارُ

لم يبق للدين الذى أظهرته
يا ركنه عند الأعادى ثارُ

لما تراقصت الرءوس وحُرِّكتْ
من مطربات قِسِيِّك الأوتارُ

رَشَّتْ دماؤهم الصعيدَ فلم يَطِرْ
منهم على الجيش السعيد غبارُ

شكرت مساعيك المعاقلُ والوَرى
والتُّرْبُ والآساد والأطيار

والشهاب محمود يهنئ الظاهر بيبرس بما يدل عليه هذا النصر العظيم من حماية الله له وخضوع المقادير ، تصدع بكل ما يشاء ويريد ، وكأنها مسخرة له تسخيراً ، ويقول إنه أظهر الدين الحنيف وأعزه ورفع رأسه عالياً بما حقق له من إدراك ثأره عند التتار ، ويصور جرأته وجرأة جيشه الجرار . فبمجرد أن تراءى العدو على الشاطئ الشرقى للفرات اقتحمه إليه ، واقتحمه معه جيشه ، وإذا الفرات يتقطع فرقاً ، وكل فِرْقٍ كأنه طود ، وما الطود والأطواد إلا جيش السلطان الظاهر الذى سرعان ما اشتبك مع التتار ، وأخذ ينحر فيهم كالخراف حتى جرت

سيول دمائهم على الأرض ، فكنت لا ترى غباراً تثيره الخيل ، إنما ترى دماء مسفوحة تغوص فيها . وإن كل شيء ليشكر بيبرس ومساعيه وأعماله الجليلة ، تشكره الحصون على ما أحاطها به من منعة ، ويشكره الناس لحمايتهم والدفاع عنهم ، ويشكره التراب لما سقاه من دماء الأعداء ، وتشكره الأسد والطير لما أطعمها من جثث التتار وأشلائهم المتناثرة.

وما إن نشرف على أواسط العقد الأخير من القرن السابع الهجرى حتى يعتنق الإسلام غازان حفيد هولاكو هو وجنوده ، ويكون ذلك إيذاناً بانتهاء الصراع بين البلاد الإسلامية والمغول ، إلا مناوشات وغارات من حين لآخر . وبذلك يصبح الظاهر بيبرس بطل الحروب التى خاضتها مصر والشام ضد المغول ، وكان له أيضاً دوره ، كما أسلفنا ، فى الحروب الصليبية . وكان بحق سلطاناً شجاعاً مقداماً وفارساً غازياً مجاهداً فى سبيل الله مرابطاً بالثغور سريع الحركة ، يقود الجيوش ويقتحم المعارك بنفسه مبادراً إلى حوماتها وساحاتها المضطرمة ، ولعله لذلك اتخذه القصاص من بعده مادة لسيرة تعرف باسمه ، وهى قصة طويلة تصور بطولته فى معاركه وحروبه كما تصور فروسيته وشيمه الرفيعة وخاصة شيمة التسامح والعفو عن الأعداء حين يقعون فى قبضته ، وأيضاً فإنها تصور نخوته ومروءته وإقدامه وجرأته .

والسيرة تمتلئ بمغامرات وخوارق كثيرة وكأنها سيرة البطل العربى فى الحروب الصليبية والمغولية جميعاً وكل ما نهض به فى هذه الحروب من ضروب بسالة خارقة وكل ما اتسم به فيها من خصال خلقية كريمة .

٦

فى معارك التحرير

ظلت البطولة العربية تضطرم فى معارك العرب مع الغرب على مدار التاريخ ، اضطرمت منذ الفتوح الإسلامية فى معاركهم مع البيزنطيين ، وازداد اضطرامها حدة وقوة فى معاركهم مع الصليبيين ، وسقطت منها شعل قوية فى معاركهم بالأندلس مع الإسبان . ثم أخذ يتراكم عليها رماد ثقيل منذ احتل العثمانيون البلاد العربية فى القرن السادس عشر الميلادى . وما يكاد يشرف القرن الثامن عشر على نهايته حتى يغزو الفرنسيون مصر بقيادة نابليون بونابرت ، ويتضح للمصريين فى جلاء ضعف العثمانيين وتابعيهم من المماليك ، إذ لم يستطيعوا الوقوف فى وجه الفرنسيين ، وأخذت جذوة الشعور القومى العربى تتقد من جديد ، فمضى المصريون يصدرون عنها فى مقاومة الفرنسيين المغيرين حتى اضطروا إلى مغادرة مصر مدحورين إلى البحر المتوسط وما وراءه . ونبهت الحملة مصر إلى ما كانت ترزح فيه من تخلف لا فى المجال العسكرى فحسب بل أيضاً فى المجالين العلمى والسياسى ، واندفعت فى نهضة علمية كبيرة ، مؤسسة للمدارس مختلفة حربية وصناعية وهندسية وطبية ، ومستقدمة طائفة من العلماء الأوربيين ، ومرسلة البعوث للتخصص فى مجالات العلوم المتنوعة . وفى هذه الأثناء أخذت البطولة

المصرية العربية تجمع تحت لوائها الجزيرة العربية والشام والسودان ، وكأنها تريد أن ترد إلى الديار العربية وحدتها القديمة ، غير أن الغرب كان لها بالمرصاد ، فأرغمها فى سنة ١٨٤٠ على أن ينحسر لواؤها عن الشام والجزيرة العربية ، أما مصر فتظل ولاية عثمانية ، تتولاها أسرة محمد على ، وليس من حقها بأى وجه أن يتجاوز جيشها ثمانية عشر ألف جندى إلا بإذن من السلطان العثمانى ، وعليها أن تخضع لما فرضه العثمانيون فى دولتهم للأوربيين من امتيازات .

ومنذ أخفقت حملة نابليون على مصر كانت فرنسا تفكر فى قطر عربى آخر تحتله وتعتصر ثماره ، وسرعان ما نزل جيشها الجزائر لسنة ١٨٣٠ مجدداً الحملة الفرنسية على مصر ، بل مجدداً الروح الصليبية الآثمة ، مستخدما كل ضرب من ضروب العنف والبطش ، وقاومت الجزائر مقاومة باسلة امتدت سبعة عشر عاماً ، وكان الذى سعرها وأذكى نارها البطل المغوار عبد القادر الجزائرى وقد بايعه الشعب أميراً له وزعيما وقائداً عسكرياً سنة ١٨٣٢ ، وتجمع الشباب وأولو العزم من حوله ، وأخذ ينازل الفرنسيين وينزل بهم ضربات قاصمة . وطال أمد المعارك ، وهى أولى معارك التحرير العربية ، وقد مضى العرب الجزائريون فيها تحت لواء الأمير يعصفون بالعدو وجنوده ورصاصه ومدافعه ، غير مبالين بالموت ، بل إنهم يستعذبونه فى سبيل إنقاذ وطنهم وتحريره من المستعمر الغاشم ، بل لقد كانت لهم مواقع عظيمة دقوا فيها أعناقه دقاً ، وخاصة فى خنق النطاح الأولى وخنق النطاح الثانية وفى فتح تلمسان واستردادها من أيدى الأعداء . وكم كابدت

الجزائر فى هذه المعارك الطاحنة ، وكم صلى أهلها من قتل وتعذيب ، والمجاهدون الأحرار صامدون من وراء بطلهم ينكلون بالعدو تنكيلا شديداً ومازالت تتوالى عليه الإمدادات ، حتى تغلبت قوى الشر والظلم والبغى والعدوان لسنة ١٨٤٧ بعد نضال مرير. وتسكن المقاومة بعد الجهاد العظيم ، ويستسلم الليث الهصور وينفى إلى فرنسا ، ثم يخرج عنه بعد سنوات ، فينزل تركيا ثم دمشق والشام . وكان شاعراً ، كما كان فارساً مقداماً ، فتغنى بالفروسية وبالبطولة صارخاً فى أمته وجنوده حتى يقتحموا معه بلجج الحرب وأعاصيرها الجامحة مصوراً لهم بسالته وشجاعته الحربية بمثل قوله مخاطباً زوجته :

إذا ما لقيت الخيل إنى لأولٌ
وإن جال أصحابى فإنى لهم تالِ

وبى تتّقى يوم الطعان فوارسى
تخالينهم فى الحرب أمثال أشبالِ

وأبذل يوم الرَّوْع نفساً كريمةً
على أنها فى السلم أغلى من الغالى

وعنى سلى جنس الفرنسيس تَعْلمى
بأنّ منايا‌هم بسيفى وعَسّالى

وهو يصور نفسه فارساً يتقدم الفرسان فى العراك والنزال ، حتى إنهم ليلوذون به مع ما أوتوه من قوة كقوة الليوث الكواسر ، وإنه ليحمس

الخيل حين تشتكى بأصواتها الخفية من كثرة ما يأخذها من السهام والنصال والرصاص، حاثًّا لها أن تصبر صبره فى المآزق الكريهة . ويعلن إعلاناً أنه يضحى بنفسه الغالية من أجل وطنه حين يحمى وطيس الحرب، إنها أنفس ما يملك وهو يبذلها لأمته راضياً . ويتجه إلى زوجته مفاخراً بما أبلى فى حرب الفرنسيين ، فإنها حين تسأل عن شأنه فى معاركه التى يخوضها معهم تعلم أن سيفه ورمحه لا يزالان ينهشانهم نهشاً .

وأخذت فرنسا منذ احتلت الجزائر تمد فى الأسباب لاحتلال تونس ، وكان حكم البايات فيها قد استشرى فيه الفساد ، لما شاع فيه من جور وظلم ، ولما أرهقت به البلاد من ديون ، وخاصة لفرنسا ، التى ظلت تحيك شباكها حول تونس، حتى احتلتها لسنة ١٨٨١ بعد أن غلبت على أمرها ، فقد اكتسحت قوى العدو البلاد ، وأخضعتها لحكمها بالقهر والبطش، ومضى الفرنسيون يعملون على اغتصاب كل ثروات تونس وإفقار شعبها وخنقها اقتصادياً ، وشدّ الرحال إليها كثيرون منهم : سماسرة وتجار ولصوص محترفون .

وكانت إنجلترا قد أخذت منذ حملة نابليون على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى تعد العدة للانقضاض عليها ، وكانت أجنحتها قد قُصّت منذ سنة ١٨٤٠ ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً إذ جُرِّدت من عدتها الحربية وأصبحت نهباً للأوربيين ، وعادت ولاية تابعة للعثمانيين ، ومد سعيد يديه إلى الغرب يستدين ، وظل قرصان فرنسى كبير يوسوس له بمشروع قناة السويس لوصل البحرين الأحمر والمتوسط ، ومازال به حتى منحه لسنة ١٨٥٤ العقد المشئوم ، عقد امتياز تأسيس شركة

عامة لحفر القناة ، وكان مأساة لا مثيل لها فى التاريخ ، فإن سعيداً لم يقف عند إنشاء القناة على يد شركة أجنبية ، بل مضى يسرف فى منحها الحقوق حتى أصبحت كأنها دولة داخل دولة ، وقد تعهد فيما تعهد أن يقدم للشركة ثمانين فى المائة مما تحتاج إليه من عمال ، وليس لمصر فى مقابل ذلك سوى خمسة عشر فى المائة من صافى الأرباح السنوية ، وباع توفيق الأحمق فيما بعد للبنك العقارى الفرنسى هذه الأرباح التى تخص مصر بثمن بخس : اثنين وعشرين مليوناً من الفرنكات. وتوفى سعيد وخلفه إسماعيل لسنة ١٨٦٣ وحفر القناة قائم على قدم وساق وكان أكثر حمقاً من سلفه ، وتورط فى ديون باهظة ، وكان لمصر من أسهم القناة ما يقرب من نصفها اكتتبت بها فى عهد سعيد فباعها لإنجلترا بدراهم معدودات : أربعة ملايين من الجنيهات . وأسوأ ما أصيبت به مصر لعهده الديون الفادحة، إذ مضى يقترض بدون أى مسوغ من البيوت المالية الأجنبية القناطير المقنطرة من الذهب والفضة حتى بلغت أكثر من مائة مليون من الجنيهات، وكلما تسلم قنطاراً بعثره فى مآربه الدنيا، فقناطير تنفق على بناء قصوره، وثانية تنفق على مباذله، وثالثة تنفق على رحلاته إلى أوربا والآستانة . ويكفهر الجو ، وإسماعيل سادر فى طغيانه وجبروته ، وشيطانه إسماعيل صديق وزير ماليته يسول له فرض الضرائب ، حتى كلّ الشعب وخارت قواه ، وأخذت المشاعر القومية تضطرم، واضطرمت معها فى نفوس كثيرين رغبة قوية فى الثورة على الظلم والطغيان وما توشك أن تتردى فيه البلاد من الإفلاس وما لا يعلمه إلا الله من سوء المصير ، ويرتفع صوت البارودى مجلجلا

لسنة ١٨٦٩ مطالباً شعبه بالقضاء على إسماعيل وحكمه الفاسد قضاء مبرماً ، صارخاً بكل قوته :

فيا قومُ هُبّوا إنما العمر فرصةٌ وفي الدهر طُرْقٌ جَمّةٌ ومنافعُ
أصبرًا على مسّ الهوان وأنتمُ عديدُ الحصى؟ إني إلى الله راجع
وكيف ترون الذلّ دار إقامةٍ وذلك فضل الله في الأرض واسع
أرى أروساً قد أينعتْ لِحَصَادِها
فأين — ولا أين — السيوف القواطع
أَهَبْتُ فعاد الصوت لم يقض حاجةً
إلىّ ولبّاني الصّدَى وهْو طائع

والبارودي يهيب بقومه ألا يتركوا الفرصة تضيع من أيديهم فيثوروا ثورة مدمرة على ظالمهم وأعوانه الذين يذيقونهم ضروباً لا تطاق من العسف والهوان والذل المقيت الذي لا تستطيع احتماله النفوس الكريمة ، بل الذي يدفعها دفعاً إلى أن تنتقم لعزتها وكرامتها ممن أحاطوها به . وتبلغ الثورة الذروة في نفس البارودي فيطلب إلى الشعب أن يمد أيديه ليقطف رأس إسماعيل ورءوس بطانته التي أغوته . ويحس كأنما تذهب صرخته أدراج الرياح ، فيحزن وييأس ، إذ لا يجد الشعب يسارع إلى الثورة وإلقاء أعباء الظلم عن ظهره .

وكلما تقدمت سنة من سنوات العقد الثامن من القرن الماضي ازدادت محنة مصر المالية وتكاثرت ديون إسماعيل السفيه ، وليس ذلك

فقط فقد ارتضى تدخل الأجانب فى شئون مصر ، وأنشأ لسنة ١٨٧٦ صندوق الدين ، وزاد الطين ضغثاً على إبالة ، فارتضى أن يقوم رقيبان إنجليزى وفرنسى على شئون المالية المصرية ، وسرعان ما أصبحا فى سنة ١٨٧٨ وزيرين فى وزارة نوبار أحد العملاء القدماء للأوربيين ، وأخذت نفوس المصريين تغلى بالحنق والسخط على إسماعيل وحاشيته ، ومضى كثيرون يدعون للثورة على الفساد والظلم والطغيان ، قبل أن تتردى البلاد فى هوة لا تستطيع منها خلاصاً ، وعاد البارودى يصيح بالشعب أن يثور على حكامه الفاسدين الجائرين ثورة عنيفة يسترد بها حريته وحقوقه فيمن يوليه شئون نفسه ، حتى يتدارك الأمر قبل فوته ، فيزيح عن كاهله الديون الباهظة ، ويعم الأمن والعدل ويعود الرخاء ، يقول من قصيدة طويلة :

وإننا غرضٌ للشرِّ فى زمنٍ
أهلُ العقول به فى طاعة الخَمَلِ

قامتْ به من رجال السوء طائفةٌ
أدهى على النفس من بُؤْسٍ على ثَكَلِ

من كل وَغْدٍ يكاد الدَّسْتُ يدفعه
بُغْضاً ويلفظه الديوانُ من مَلَلِ

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا
شِكالةَ الرَّيْث فالدنيا مع العجَلِ

وقلِّدوا أمركم شَهْماً أخَا ثِقَه
يكون رِدْءاً لكم فى الحادث الجَلَلِ
وطالبوا بحقوقٍ أصبحتْ غرضاً
لكل منتزِعٍ مَهْماً ومُخْتَتِلِ
حتّى تعود سماءُ الأَمن ضاحيةً
ويَرْفُلُ العَدْلُ فى ضافٍ من الحُلَلِ

وهو يستثير الشعب بما يصور من الشر الجاثم على صدره وكأنما يستكين عقلاؤه لمن يحكمهم من الخاملين الذين أحالوا حياتهم بؤساً وحزناً حزن الثكالى على أبنائها ، من كل وغد لئيم ، يكاد دسته فى الحكم أو بعبارة أخرى مجلسه فيه يدفعه عنه دفعاً ليدفع ما دنسه من عار ، وأى عار ؟ لقد ذلت بهم مصر بعد العز واختل ملكها وكل ما فيها . ويعجب البارودى ألا يسارع الشعب إلى الانتقام من إسماعيل وحواشيه الذين استذلوه ، وإنه ليتساءل مستثيراً الهمم ومستنهضاً العزائم هل حل بالأبطال ضعف أو أصاب الأسياف فلل فلاتستطيع أن تضرب الضربات المصمية ، ويدعو متحمساً إلى المبادرة وفك عقال الإبطاء ، حافزاً للثورة تحت لوائه والمطالبة بحقوق الأمة المشروعة التى أصبحت لكل أبناء الأمم من محاربين بالسيف وبالخديعة والمكر ، حتى تشرق على مصر أضواء الأمن والدعة ، وحتى ترفل فى حلل العدالة والكرامة .

وينتهى عصر إسماعيل ويخلفه ابنه توفيق ، ويمضى متخبطاً فى

سياسة خرقاء عمادها حكم استبدادى ظالم وازدياد نفوذ الأوربيين فى الدولة بالإكثار من توظيف كثير من المستشارين الذين تغلغلوا فى الدواوين ، وإتاحة الفرصة لرءوس الأموال الأجنبية كى تستثمر موارد البلاد وتستنزف آخر قطرة من قطراتها . وكان أبوه قد عمل على أن يحرم الضباط المصريين من الترقية إلى الوظائف العليا فى الجيش على الرغم من كفاياتهم الممتازة ، وجعلها مقصورة على الضباط الأتراك والشراكسة ، وتمادى توفيق فى هذا الظلم الصارخ ، وبلغ الظلم ذروته بتوليته عثمان رفقى الشركسى شئون البحرية والحربية ، وسرعان ما قامت الثورة العرابية بقيادة أحمد عرابى على هذا الظلم المجحف ، وأذعن الخديوى توفيق صاغراً ، وخرج رفقى من نظارة الحربية والبحرية وتولاها محمود سامى البارودى . وأخذت تتوالى الأحداث ، وتألفت وزارة من زعماء الحركة العرابية برياسة البارودى ونهوض عرابى بنظارة الحربية والبحرية . ولم يقر قرار الإنجليز ، لقيام هذه الحكومة الوطنية التى ينتظر أن ترد الأمر إلى نصابه وتنقذ مصر من الدمار الاقتصادى الذى يوشك أن يؤدى بها إلى دمار سياسى أكيد ، وأخذوا يبذرون بذور الوقيعة الوضيعة بين توفيق والحكومة الرشيدة ، وما زالوا يحوكون الدسائس والفتن حتى ارتضى توفيق الطائش قصير النظر أن تدخل جيوشهم مصر لحمايته من الثوار ، وسرعان مادوت مدافعهم على شواطئ الإسكندرية وبور سعيد والسويس ، وقاوم الجيش والشعب بقيادة عرابى والبارودى مقاومة باسلة غير أنهما كانا يقاومان جيشاً ضخماً يفوقهما فى عدده وعدته الحربية ، فانتصر العدو الآثم ، ومضى حتى احتل القاهرة . ودخلها فى ظلال

مدافعه ورصاصه توفيق ومن معه من الخائنين ، واستقر العدو على ضفاف النيل محتلا البلاد الطاهرة ، زاعماً كذباً وبهتاناً أنه سيجلو عنها حين تهدأ الأمور . ولما هدأت تفاوض مع الدولة العثمانية على الجلاء ، ولكنه وضع من دونه شروطاً تثبت أقدامه فى مصر وتفسح له فى المقام . وكان زعماء الثورة العرابية قد اعتقلوا وألقى بهم فى غياهب السجون انتظاراً للمحاكمة ، وحكم بالنفى المؤبد على زعماء الثورة وفى مقدمتهم عرابى والبارودى ، ونفوا إلى سرنديب .

وكان البارودى فى كل هذه الظروف التى أجملناها يفزع إلى قيثارته يتغنى عليها بكل ما يحتدم فى نفسه من سخط على توفيق وبطانته ، ومن ثورة على المستبد الأرعن ومن محاولة لاستنهاض الشعب كى يلقى شواظ غيظه على ظالمه إلقاء عنيفاً يهز القلوب هزاً ويزلزل الفساد زلزالا يأتى عليه وعلى من يمدون له فى أسباب الغواية . ومن خير ما يصور ذلك قصيدته التى نظمها وهو ناظر النظار يدعو فيها دعوة صريحة للثورة على توفيق ، ثورة دامية تطيح برأسه ورءوس أذنابه ، يقول :

تالله أهدأُ أو تقوم قيامةٌ ... فيها الدماء على الدماء تُراقُ

أنا لا أُقرّ على القبيح مهابةً ... إن القرار على القبيح نفاقُ

قلبى على ثقةٍ ونفسىَ حُرّةٌ ... تأبى الدّنىّ وصارمى ذلّاقُ

وعلام يخشى المرءُ فرقةَ روحه ... أَوَ ليس عاقبةَ الحياة فراقُ

وهو يجاهر بأنه لن يهدأ ولن يستريح حتى تنشب ثورة حمراء يسيل فيها دم توفيق وأعوانه مدراراً ، ويقول إنه لا يقر أى عمل قبيح نفاقاً

ورياء، فقد خلق أبيّاً حراً ، يأبى دنيات الأمور ، معتصماً بسيف قاطع . وفيم يخشى المرء الموت ، وهو عاقبة كل حى إذ كل من عليها فان فإما عيش كريم وإما موت زؤام . ولو أنه استخدم سيفه حينئذ وأراح مصر من محنتها بتوفيق لما نزلت بها الطامة الكبرى ، طامة الاحتلال البريطانى البغيض. وقد ظلت له بعد إخفاق الثورة العرابية وطوال منفاه هذه الروح القوية ، وكأن نفسه كانت من الصلابة بحيث لا تؤثر فيها الخطوب مهما اشتدت ومهما أناخت عليه بكلا كلها الثقيلة ، ولذلك نراه من حين إلى حين يدعو إلى الثورة على توفيق ، ثورة تعصف به وبأعوانه أعداء الشعب الآثمين .

وعلى هذا النحو ظلت الثورة تغلى فى عروق البارودى على الرغم من نفيه إلى سرنديب ، وظل ينذر ويتوعد ويهدد بيوم الثورة الذى يعصف بتوفيق وبطانته ، والذى يثأر فيه الشعب لكرامته . ونتلفت فى وطنه فلا نجد أصداء لصيحاته وصرخاته ، وكأنما أذهل الناس تفوق الإنجليز فى أسلحتهم الحربية على نحو ما أذهل ذلك آباءهم وأجدادهم إزاء الحملة الفرنسية القديمة وعتادها الحربى ، وكانت قد بعثت فى العرب المصريين تطلعاً قوياً إلى الأخذ بأسباب النهضة العلمية ، فمضوا يحدثون نهضة عظيمة ، كما مضوا يحاولون مقاومة حكم الخديويين الفردى المطلق ، وتطورت الأمور ، وأثقل كاهل مصر بالديون ، وعبثاً حاول زعماء الأمة أن يستخلصوا من إسماعيل وابنه توفيق حقوق أمتهم فى الحكم وجميع شئونها المالية والداخلية والخارجية ، فقد ظلا سادرين فى غيهما إلى أن حدثت كارثة الاحتلال البريطانى وجرد الإنجليز الشعب من جيشه

الوطني وأحلوا مكانه جيشاً هزيلا يرأسه سردار إنجليزى وضباط بريطانيون ، ووضعوا أيديهم على كل أدوات الحكم ، وخنقوا الحريات خنقاً. ونفس الرواية كانت تمثلها فرنسا فى الجزائر وتونس ، مما جعل الناس يستشعرون هنا وهناك ألماً ممضاً ، وقد أخذوا يضعون أملهم فى ضروب من الإصلاح الفكرى والدينى والاجتماعى ، فظهر فى تونس خير الدين التونسي الذى كان يستشعر المصير التعس لوطنه قبل نزول الفرنسيين به ، فمضى فى طائفة من الإصلاحات التعليمية الدينية يريد أن يستنقذ بلاده من الخرافات وأن يهيئها للحياة العلمية الحديثة ، واستمرت إصلاحاته مطردة ، وإن كنا نلاحظ أنها لم توصل بمحاولات للإصلاحات السياسية بحيث تنشأ مقاومة سريعة ضد الفرنسيين واحتلالهم الغادر للبلاد . ونلاحظ ذلك نفسه فى الجزائر ، فإنها لم تحاول مقاومة المحتل طوال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وشطراً كبيراً من القرن العشرين . أما مصر فقد أخذت تعنى بالإصلاح الفكرى الدينى على نحو ما هو معروف عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ودعوته إلى الاجتهاد فى الدين والتحرر العقلى وإنكار البدع والخرافات ، كما أخذت تعنى بالإصلاح الاجتماعى على نحو ما هو معروف عن قاسم أمين ودعوته إلى تحرير المرأة . ولم تنس مصر الإصلاح السياسي وما يتبعه من المقاومة للغاصب الأجنبى ، حقاً لم تبادر إلى ذلك توا ، ولكن لانكاد نشرف على نهاية القرن التاسع عشر حتى يحمل مصطفى كامل لواء مقاومتنا الشعبية ضد الاحتلال ، وبحق سمى الصحيفة التى أصدرها لمقاومة قوى البغى والشر والعدوان « اللواء » وهى لواء أحاله إلى مقالات نارية وخطب ملتهبة

صارخاً فى وجه الإنجليز أن يجلوا عن البلاد ، وتنقّل فى الديار الأوربية صائحاً فى المحافل الدولية بحقوق الشعب المصرى فى الحرية والجلاء والاستقلال ، حتى إذا حدثت محاكمة دنشواى الجائرة لسنة ١٩٠٦ مضى يصرخ فى باريس ولندن مصوراً فظائع الإنجليز وحكمهم الغاشم ، وذلك أن خمسة منهم قصدوا إلى قرية دنشواى لصيد الحمام ، فتعرض لهم نفر من أهلها وتصادف أن أصيب ضابط بضربة شمس أدت إلى موته ، فثارت ثائرة اللورد كرومر عميد الإنجليز فى مصر ، وأمر بأن تعقد لهم محكمة مخصوصة برياسة بطرس غالى لمحاكمتهم ، فقضت بإعدام أربعة من المتهمين شنقاً وجلد سبعة بالسياط وحبس ثمانية مدداً متفاوتة . ونفذ الإعدام والجلد بمرأى من الأهلين تنكيلا . وكان ذلك بمثابة نفير لإيقاظ أهل مصر وتجمعهم تحت لواء مصطفى كامل لمناضلة المحتل الباغى الطاغى فى الصحف وبالخطب والأناشيد الحماسية من مثل قول حافظ مجسّداً بشاعة هذا الحكم الجائر ، وكانوا إذا شنقوا شخصاً أبقوه معلقاً بحبله حتى يجلد اثنان بالسياط :

جُلِدوا ولو منّيْتَهم لتعلّقوا بحبال من شُنقوا ولم يتهيّبوا

يتحاسدون على الممات وكأسُه بين الشفاه وطعمه لا يَعْذُبُ

موتان : هذا عاجلٌ متنمّرٌ يرنو ، وهذا آجِلٌ يترقّبُ

وحافظ يصور المجلودين . وهم يبصرون المشنوقين يتدلوْن فى الحبال فيتمنون لو كان لهم نفس المصير أنفة أن تمس جلودهم سياط العدو الآثم وجرأة وبسالة وشجاعة ، بل إنهم ليحسدون إخوانهم المشنوقين

على الموت يريدون أن يحتسوا كأسه ، وهل أمامهم سوى موتين ، موت عاجل شنقاً ، وموت بطيء يتجرعونه بالسياط وغير السياط ، مما يسلطه عليهم المحتل الغاشم . ومازال مصطفى كامل والمصريون يشنون حملات شعواء على كرومر وطغيانه وظلمه الصارخ فى كل صحيفة وعلى كل لسان مما اضطر إنجلترا إلى نقل كرومر من مصر .

وسرعان ما يلبى مصطفى كامل نداء ربه ، فيبكيه حافظ ويبكيه شوقى بكاء حارًّا ، يصوران فيه حزن الشعب لفقده ومدى إحساسه بالخسارة الجسيمة لموته ، من مثل قول حافظ فى وصف جنازته :

تسعون ألفاً حول نعشك خُشَّعٌ   يمشون تحت لوائك السَّيارِ
خَطُّوا بأدمعهم على وجه الثَّرى   للحزن أسطارًا على أسطارِ
آناً يوالون الضجيج كأنهم   ركب الحَجيج بكعبة الزُّوَّارِ
وتخالهم آناً لفرط خشوعهم   عند المصلَّى ينصتون لقارى

وكانت القاهرة قد اهتزت وارتجت حين بلغها النبأ المفجع ، فخرجت جماهيرها تودعه وتشيعه إلى مثواه الأخير ، والتفت الألوف المؤلفة حول نعشه ، وسارت من ورائه وهى تجهش بالبكاء ، مرسلة دموعاً غزاراً ، وتارة تضج بالصراخ والعويل ، وكأنها ركب حجيج زاخر بالضوضاء ، وتارة يخشع الناس كأنما ينصتون لقارئ يتلو آيات الذكر الحكيم ، فهم واجمون من هول المصاب ذاهلون ، وقد ملأ قلوبهم الحزن والجزع على بطل الوطنية الأول الذى قصمه الموت فى ريعان شبابه .

وكانت بريطانيا قد عقدت لسنة ١٩٠٤ اتفاقاً بينها وبين فرنسا أقرت فيه لها إطلاق يدها فى مراكش فى حين تطلق هى يدها فى مصر، ومضت فرنسا تنصب الشباك لمراكش حتى وقعت فريسة لاحتلالها المشئوم . وما تلبث إيطاليا أن تطمع فى أن يكون لها نصيبها بدورها فى الشمال الإفريقى ، فتهجم لسنة ١٩١١ بجيوشها وأساطيلها على طرابلس وما وراءها من الديار الليبية ، ويقاومها الليبيون مقاومة عنيفة يكيلون لها فيها كثيراً من الضربات واللطمات ، غير أن التفاوت الشاسع بين القوتين المتحاربتين انتهى بليبيا إلى نفس المصير الذى انتهى إليه احتلال جاراتها . وتصايح شعراء العربية فى كل مكان يمجدون نضالها وما بذلت من الدماء مسجلين على الطليان الخزى والعار لقتلهم الشيوخ والنساء والأطفال الأبرياء ، من مثل قول حافظ فى ميمية له طويلة :

عجز الطليان عن أبطالنا فأعلُّوا من ذرارينا الحُساما
كبَّلوهم قتلوهم مثَّلوا بذوات الخِدْرِ طاحوا باليتامى
ذبحوا الأشياخ والزَّمْنَى ولم يرحموا طفلاً ولم يبقوا غلاما
مالهم ـ والنصر من عاداتهم ـ لزموا الساحل خوفاً واعتصاما
أفلتوا من نار فيزوف إلى نار حربٍ لم تكن أدنى ضِراما
إن فى أضلاعنا أفئدةً تعشق المجد وتأبى أن تُضاما

وهو يقول إن الطليان حين عجزوا عن لقاء أبطالنا جبناً وفزعاً سقَوْا سيوفهم من ذرارينا وأطفالنا نذالة وخسة ، ومضوا يكبلونهم

بالأغلال ويسفكون دماءهم ، وحتى النساء مثلوا بهن تمثيلا فظيعاً ، وذبحوا الشيوخ والزمنى ذوى العاهات ولم يرحموا يتيما ولا طفلا صغيراً . وعصف بهم الليبيون عصفاً إذ اضطروهم إلى الانسحاب والارتداد إلى الساحل ، ويشفى حافظ غيظه منهم بسخرية لاذعة إذ يجعل النصر من عاداتهم وهم يفرون على وجوههم ، ويشير إلى بركان فيزوف جنوبى إيطاليا قائلا إنهم فروا منه إلى بركان عربى لا يهدأ ولا يخمد ولا تسكن فورته . ويعلن أن العرب فى ليبيا وغير ليبيا سيظلون يناضلون عن كرامتهم إلى آخر قطرة من دمائهم ، ولن يهنوا ولن يضعفوا ولن يلحقهم أى ضيم أو هوان . وكتب على ليبيا ما كتب على جاراتها من احتلال الأجانب الآثمين .

وكان قد تزعم الحركة الوطنية فى مصر بعد مصطفى كامل صفيه ورفيقه محمد فريد ، فظل يصارع العدو الباغى وهو يلقى به فى السجون حتى بدأ منفاه فى أوربا لسنة ١٩١٢ ، وظل سنوات متصلة يختلف إلى المؤتمرات هناك ويكتب فى الصحف ويخطب فوق أعواد المنابر مدافعاً عن قضية وطنه دفاعاً حاراً حتى لبى نداء ربه لسنة ١٩١٩ ، وكان الشعب المصرى قد فاض به الكيل ، فثار ثورة ضارية على الإنجليز وكانوا أعلنوا عليه الحماية عقب نشوب الحرب الكبرى الأولى لسنة ١٩١٤ كما أعلنوا الأحكام العرفية وفرضوا رقابة شديدة على الصحف وكمموا الأفواه ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها أخذ الشعب يطالب بحقه المشروع فى الحرية والاستقلال ورفع الحماية عنه والأحكام العرفية والرقابة على الصحف وجلاء العدو عن البلاد ، وكأنما كان ذلك

إيذاناً بأن يثور البركان العربى الذى أشار إليه حافظ ثورة تظل تتفجر فى كل مكان تحت أقدام المحتلين الباغين. والشعب المصرى بذلك هو أول شعب عربى أضرم النضال فى القرن العشرين ضد الأعداء الطاغين، فأخذت حممه تسيل ملتهبة، وطمّ السيل فى شهر مارس لسنة ١٩١٩ وتحول إلى ما يشبه طوفاناً من مظاهرات الطلاب والعمال وأفراد الشعب عن بكرة أبيه، وسلّطت القوات الإنجليزية مدافعها ونيرانها ورصاصها عليهم، ولكن السيل لم يتوقف بل أخذ يزداد كل يوم وأمواجه تتدافع. ولم تلبث النساء أن شاركت الرجال فى الجهاد، فألّفن مظاهرة كبيرة طفن فيها بالشوارع وبأيديهن احتجاج مكتوب يُردن تقديمه إلى سفراء الدول الأجنبية، وتصدت لهن قوات العدو الغاشم ضاربة حولهن نطاقاً ومسددة بنادقها وحرابها لصدورهن وفى ذلك يقول حافظ محيياً شجاعتهن واستبسالهن ساخراً من قوات العدو ومسلكها المخزى المشين :

خرج الغوانى يَحْتَجِجْـ ـنَ ورُحْتُ أرقبُ جَمْعَهُنَّهْ
وإذا بجيشٍ مقْبِلٍ والخيلُ مطلقة الأعِنَّهْ
وإذا الجنود سيوفُها قد صُوِّبَتْ لنحُورِهِنَّهْ
وإذا المدافع والبنا دق والصوارم والأسِنَّهْ
فتطاحن الجيشان سا عاتٍ تشيب لها الأجِنَّه
فَلْيَهْنَأِ الجيشُ الفخو رُ بنصرِهِ وبكسرهِنَّه

وحافظ يصور كيف برز النساء متظاهرات محتجات تكسوهن

الحشمة والوقار ، يهتفن بسقوط الحماية وحياة الاستقلال والحرية . وهو وغيره من أبناء الشعب يشاهدون في إجلال هذا الموكب النسائي الحافل : وما إن طفن ببعض الشوارع هاتفات حتى تصدى لهن العدو بخيله وفرسانه ومدافعه ونيرانه : وقد صوب بنادقه لنحورهن ، وهن لا يأبهن لرصاصه وتهديده ، مع أنهن كن مجردات من السلاح ولم يكن بأيديهن سوى الأعلام والورد والريحان ، وتطاحن الجيشان : جيش النساء المصري وجيش العدو الآثم ساعات يشيب لها الولدان بل الأجنة في الأرحام ، حتى إذا كلَّت قوى النساء عدن بأكاليل الفخار إلى بيوتهن . وحافظ يهنئ الجيش البريطاني بنصره المخزي وانكسار جيش النساء المصري المشرف ، في سخرية مرة قاتلة .

وتحولت ديار مصر جميعها إلى بركان كبير ، فإذا الثورة تتفجر في كل مكان وفي كل بلد كبير أو صغير ، وتظل أشهراً متوالية ، ويتصدى لها العدو الغاشم بالرصاص والمدافع ، ويتساقط الشهداء بالمئات ، وتتحول القاهرة والإسكندرية إلى مجازر تجرى فيها الدماء أنهاراً ، وتتبعهما كثير من المدن ، والجميع ينادون : الاستشهاد الاستشهاد . ويقيم العدو محاكمات للثوار في كل مكان وينصب مشانقه ، والشعب يزداد كل يوم هياجاً وحماسة وعنفاً بالعدو ، وضحاياه تتكاثر وهو يقدمها راضياً لمطلبه الأسمى في الحرية والاستقلال ، وكأنما عاهد وطنه ألا يخمد نضاله وجهاده إلا إذا تحقق له استقلاله وسيادته ، حتى إذا كان شهر سبتمبر سنة ١٩١٩ أرسل الإنجليز لجنة ملنر للتحقيق ، وأدرك الشعب ما في ذلك من مراوغة ، فظل في هياجه ومظاهراته وظل الإنجليز يعقدون

محاكماتهم العسكرية وما تقضى به من الأشغال الشاقة والإعدام ، وظلت وقائع الثورة متصلة حتى أعلن الإنجليز تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ وفيه أعلنوا انتهاء الحماية البريطانية على مصر واعترفوا بها دولة مستقلة ذات سيادة ، وكان ذلك نجاحاً كبيراً لثورة سنة ١٩١٩ وإن كانت لم تنجح فى إجلاء الإنجليز عن البلاد ، وبذلك ظلوا يتدخلون فى شئون مصر ، وظلت لهم السيادة فعلا وإن ألغيت قولا . ومن المحقق أن هذه الثورة كانت صفحة مجيدة فى الجهاد والنضال سطرها أبناء الشعب المصرى الأبطال بدمائهم الزكية ، أبطال مجهولون ضحوا بأرواحهم لينال الشعب حريته وسيادته واستقلاله ، غير حافلين بذكر أو شهرة ، إنما شيء واحد الذى حفلوا به : أن يحققوا لأمتهم ما تبغيه من الحياة الحرة المستقلة الكريمة ، وقد مضوا يستقبلون الرصاص ونيران المدافع فى شجاعة وبسالة حتى امتلأت المدن الكبرى والصغرى دماء . وكلما أمعن الإنجليز الغادرون فى القتل والحكم بالإعدام والسجن واقتراف الآثام أمعن أبناء الشعب فى التضحية وبذل المهج والأرواح . وظل ذلك أشهراً متعاقبة ، والرصاص يدوى ، والشهداء يتزاحمون على حياض الموت وحبال المشانق فى سبيل الحرية المهدرة ، حتى أحالوا هذه الدورة فى تاريخ مصر العربية إلى دورة بطولة ، لا تقل عن دورات بطولاتنا التاريخية شأناً .

وإذا كنا نكثر من الحديث عن بطولات العرب فى حروب الروم والصليبيين والمغول ونلتمس فيها الفخر والقدوة المثلى فأحرِ بنا أن نتحدث عن بطولات المصريين فى هذه الثورة ، وكيف نهضوا بها عزلا ،

لا يحملون شيئاً من سلاح أو عدّة سوى الشعور بالعزة والكرامة وما ينبغي أن يُرَدّ عليهم من الحرية والاستقلال، ومن المؤكد أننا حتى اليوم نستلهم هذه الثورة الدامية ، وكأنما كانت الفجر الذى انبثقت منه ثورات العرب ومقاومتهم فى كل مكان للمحتلين أو كأنها بدء تاريخهم الحى الحديث . وبحق أكثر شعراؤنا وشعراء البلاد العربية من الإشادة بأبطالها المجهولين وما ضربوا من أروع الأمثلة فى الفداء والتضحية ، من مثل قول أحمد محرم فى استشهاد الثائرين وخوضهم غمار النار والرصاص ملبين نداء الوطن :

يمشى الشهيد على الشهيد وإنما
يمضى على أثر الرفاق ويتبعُ
ويبح الركائب والنواعب هاجها
حادى الفراق فذاهب ومشيِّعُ
يا مصر أنت لكل نفسٍ مطلبٌ
جللٌ وأنت لكل قلبٍ مطمع
تحيين بالقتل النفوس فلا المنى
تطوى لديك ولا الدماء تضيَّعُ

وهو يصور كيف كان الشباب يرى مصارع أقرانه ، فلا يهدّ ذلك ثورته ؟ بل يشعل حفيظته ؛ ويتقدم بدوره لتكتب له الشهادة مثل

نظرائه . ويتكاثر صرعى الثورة ، ويتكاثر الراحلون والمشيعون ، وكل يريد أن يفدى مصر وطنه بدمه ومهجته الغالية . ويحيي خليل مطران أرواح هؤلاء الشهداء بقصيدة بالغة التأثر ، وفيها يقول :

تحيةً أيها القتلَى وتسليما بلغتمُ الشأوَ تخليدًا وتعظيما

لا يعبد المرءُ ربًّا لا ولا وطناً بمثل إغلائه القربانَ تقديما

يحطِّم العظم منكم دون بُغْيتكم فتصبرون ويأبى العزم تحطيما

ليس الشهادة إلا من يموت على حقٍّ ومن لا يبالى فيه ما سيما

للمشترى بصِباه عِزَّ أمته ذكرٌ يديم اسمه بالتِّبْر مرقوما

هل نال حريةً قومٌ بها جدُرُوا وهم يبالون تقتيلا وتكليما

وهو يشيد بما بذل الشهداء من مهجهم بذلا بلغوا فيه الذروة فى التضحية والفداء ، إذ قدموا أغلى ما يملكون لوطنهم المعبود ، قدموا أرواحهم راضين ، لا يهمهم أن تحطم عظامهم ، بل إنهم ليصبرون على هذا التحطيم ، بل لقد عقدوا العزم عليه . وذلك هو الاستشهاد الحق الذى يستعذب فيه الشهيد كل ما يسام من عذاب حتى القتل وسفك الدماء، وإن أسماء هؤلاء الشهداء الذين اشتروا عز أمتهم وكرامتها بشبابهم الناضر لتكتب بالتبر ، بل إنها لتحفر حفراً فى قلوب الأجيال التالية . وحقًّا لاينال قوم حريتهم ولا يصبحون جديرين بها إلا إذا لم يبالوا بما قد يصيبهم من تقتيل وتجريح ، وكان منهم مثل هؤلاء الشهداء البررة .

وكانت هذه الثورة العاتية بمصر الشعلة القوية التى أضاءت للعرب طريق الثورة على المحتلين الغاصبين فى ديارهم المختلفة ، وكان الإنجليز قد احتلوا العراق عقب الحرب الكبرى الأولى وأخذ العراقيون يقاومونهم منذ وضعوا أقدامهم فى البلاد ، حتى إذا كانت سنة ١٩٢٠ ثاروا عليهم ثورة عنيفة فى الجنوب والوسط والشمال وفى أنحاء نهر الفرات المختلفة وفى النجف والكوفة والحلة والرميثة ، وفزع الإنجليز الباغون إلى الرصاص والنار ، واستبسل الشعب فى جهاده ونضاله استبسالا رائعاً ، وظل الشعراء يحمسونه ويستثيرونه للنضال من مثل قول الجواهرى مخاطباً الثوار :

أسيافكم مرهفةٌ وعزمكم متَّقِدُ
هبّوا كفتْكم عِبْرَةً أخبارُ من قد رَقدوا
هبوا فعن عرينه كيف ينام الأسد
وثورةٌ بل جمرةٌ ليعرب لا تخمد
أجّجها آباؤهم والحرُّ لا يستعبد

والجواهرى يقول للثوار إن العزم فى قلوبكم والسلاح بأيديكم ، فهبوا للتنكيل بالأعداء حتى لا يكون شأنكم شأن النائمين الغافلين ، وهل يغفل الأسد عن عرينه وينام ؟ وإنها لثورة ملتهبة ، بل جمرة مشتعلة للعرب لا تخمد ولا تنطفئ ، أشعلتها أمجاد آبائهم الحربية القديمة وانتفاضة الحر الأبى على مستعبده الذى يسترقه انتفاضة تمحقه محقاً . غير أن الإنجليز خدّروا العراقيين بحكومة وطنية أقاموا عليها فيصل بن الحسين

ونادوا به ملكاً على العراق فى غير ملك حقيقى ، بل فى ملك مزيف يسنده جيش الاحتلال ، وظل الإنجليز الباغون يراوغون الشعب بمعاهدات تغله وتطوق عنقه ، والمظاهرات تتوالى من حين إلى حين ، والشعب غاضب حانق حنقاً شديداً .

وبينما كان العراقيون يقومون بثورتهم على الإنجليز واحتلالهم البغيض لسنة ١٩٢٠ كان الفرنسيون يحاولون احتلال لبنان وسوريا ، وقد اصطدموا بمقاومة عنيفة وخاصة فى سوريا ، فإن الجنرال الفرنسى « غورو » حين زحف بجيوشه نحوها قاصداً فتحها تصدى له الجيش السورى فى ميسلون بجوار دمشق ، وكان يقوده اللواء يوسف العظمة ، فصمم هو ومن معه من الجيش أن يظلوا صامدين فى قتال الفرنسيين حتى الموت ، وكانت عدتهم قليلة فخروا صرعى فى ميدان الشرف والجهاد . ويقول خليل مردم من قصيدة يصور فيها استبساله هو ورفاقه فى القتال دفاعاً عن الوطن المقدس :

هوى وحُلته حمراء من دمِه
كالشمس حين هوتْ فى ثوبها الجادى
صديانُ لم يَرْوَ حتى عبَّ من دَمِه
والهف نفسى له ريَّان أو صادى
فى فتية نفروا للموت حين بدا
جريدةً من زرافات وآحادِ

صلَّى الإلهُ عليهمْ من مجندلةٍ
أشلاؤهم بين أغوارٍ وأنجادِ

وهو يقول إن يوسف العظمة خرَّ صريعاً وحلته عاطرة بدمه كأنه الشمس تغرب فى ثوبها القانى ، عطشان لم يطفئ غلة ظمئه إلا دمه الغالى ، ويتحسر عليه مرتوياً وظامئاً . ويشيد بصحبه الأبطال الذين نفروا معه للنضال جماعات ووحداناً ، يريدون تفدية الوطن بمهجهم وأرواحهم ودمائهم . وهو يدعو الله أن ينزل هؤلاء الصرعى الذين تناثرت أشلاؤهم فى الأغوار والأنجاد منازل المقربين فى عليين . وانتهت معركة ميسلون نهاية فاجعة ، فقد احتل الفرنسيون سوريا وظلوا بها حتى سنة ١٩٤٥ ، ومازال السوريون يثورون بهم ثورات عارمة حتى اضطروهم إلى الجلاء .

وكان البركان المصرى قد ثار ، وظلت حممه وشعله تتدافع ، والشعراء من أمثال شوقى وحافظ يستحثون الشباب على جهاد الإنجليز مستنهضين عزائمه فى مغالبتهم ، حتى تنكشف سحابتهم السوداء عن سماء البلاد . ومن خير ما يصور ذلك قول شوقى فى سنة ١٩٢٤ حين أطلقت طائفة من سُجناء الشباب ورُدَّت إليها حريتها ، وكانت قد وجهت إليها تهمة التآمر ضد المحتلين الباغين :

يا مصر أشبالُ العَرين ترعرعتْ
ومشتْ إليك من السجون أسودا

طلبوا الجلاء على الجهاد مثوبةً
لم يطلبوا أجر الجهاد زهيدا
وجد السجين يدًا تحطِّم قيده
من ذا يحطِّم للبلاد قيودا
ربحتْ من التصريح أن قيودها
قد صِرْنَ من ذهب وكن حديدا
أو ما ترون على المنابع عُدَّةً
لا تنجلي وعلى الضِّفاف عديدا
والله ما دون الجلاء ويومه
يومٌ تسميه الكِنانةُ عيدا

وشوقى ينوه بأشبال الشباب الذين خرجوا من السجون ليوثاً كاسرة ، ويقول إنهم يتحملون ما يتحملون من عذاب السجون فى سبيل الجلاء الموعود ، ويألم أن يحطم السجين قيده ولا تحطم القيود الملتفة حول رقاب البلاد ، قيود الاحتلال البغيض . ويسخر من تصريح ٢٨ فبراير لما يحمل من قيود الحماية ، وكل ما فى الأمر أنه طلاها بذهب طلاء كاذباً ، إذ لاتزال جنود المحتل تعيث فى البلاد فساداً ولايزال يسيطر على أداة الحكم محتلا ضفاف النيل من منبعه إلى مصبه . ويهتف شوقى ستظل مصر محزونة حتى يتحقق لها الجلاء ، وإن يومه ليوم عيدها المأمول .

ويظل شرر البركان المصرى يتطاير فى الديار العربية ، ويسقط بعض منه فى المغرب الأقصى ، فيثور الريف فى شماليه بزعامة المجاهد الكبير محمد عبد الكريم الخطابى ، وسرعان ما ينازل جيوش إسبانيا ويسحقها فى غير موقعة،وتنازله فرنسا ، ويظل نضاله فى سبيل تحرير بلاده محتدماً من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٦ . ويضطر بأخرة إلى الاستسلام بعد أن أبلى هو وجنوده بلاء عظيما ، كان له أعظم الأثر فى اشتعال الوعى الوطنى والقوى فى المغرب جميعه ، وقد هب كثير من الشعراء يستنهضون الشباب المغربى ويحرضونه على حرب الباغين المعتدين بالقصائد والأناشيد الحماسية من مثل قول أبى بكر بنانى فى نشيد يهز القلوب :

يا بنى المغرب هيا للقتالْ   واستعدوا للوغى قبل النزالْ
أنتم والله شجعان الرجال   واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب هبّوا هبّةً   واضربوا وجه فرنسا ضربةً
ذكرها يبقى عليها سُبّةً   واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب موتوا شهدا   لا تعيشوا تحت إذلال العِدا
مزقوا الكفر وأشراك الرَّدى   واسألوا الله انتصار المسلمين

وبنانى يصرخ فى شباب المغرب أن يتقدم للقتال متخذاً عدته من السلاح مسجلا ما يتصفون به من الشجاعة والبسالة ، حتى يضربوا العدو الضربة القاضية ، وإنه ليطلب إلى الشباب الاستشهاد فى سبيل

طن المفدى وماغشيه من ذل الاحتلال وأن يمزقوا الفرنسيين شر ممزق ،
ي تعلوراية الإسلام ويتحقق لهم النصر المبين .

وما يلبث جبل الدروز لسنة ١٩٢٥ أن يثور بدوره على الفرنسيين
رة ضارية وتثور معه دمشق وبلدان سوريا ، ويخوض السوريون
المستعمر ثورة حامية ، يسلط فيها على الثائرين مدافعه ورصاصه
يرانه ويرون صواعق الموت أمامهم ، ويترامون على النضال والجهاد
ضحين بأرواحهم فى سبيل ما يبتغون لوطنهم من حرية واستقلال .
ثار نضالهم الرائع الشعراء لا فى سوريا فحسب ، بل فى جميع البلاد
لعربية ، ولشوقى تحية بديعة لهذا النضال يقول فى تضاعيفها مشيداً
بسالة دمشق وأهلها الأحرار :

وللأوطان فى دم كل حرٍّ يَدٌ سلفتْ ودين مستحَقُّ
ومن يسقى ويشرب بالمنايا إذا الأحرار لم يُسْقَوْا ويَسْقوا
ولا يبنى الممالكَ كالضحايا ولا يُدْنِى الحقوق ولا يُحِقّ
ففى القتلى لأجيالٍ حياةٌ وفى الأسرى فِدًى لهمُ وعتقُ
وللحرية الحمراء بابٌ بكل يدٍ مضرَّجةٍ يُدَقّ
جزاكم و الجلال بنى دمشقٍ وعِزُّ الشرق أوله دمشقُ

وشوقى يقول إن كل مواطن حر يشعر بأن لوطنه عليه يداً وديناً
ينبغى أن يؤديه من دمه موردا أعداءه حتوفهم ، وإن الدول لا يبنيها
ويرفع بناءها شاهقاً فى السماء مثل الضحايا الذين يفدونها بمهجهم ودمائهم

مستنزلين بذلك حقوقها السليبة من أيدى أعدائها الباغين . وإن قتلاهم ليقدمون للأجيال التالية حياة كريمة ، ومثلهم الأسرى وما يتحملون من ألوان العذاب ، ويقول إن للحرية باباً لا تفتحه إلا الأيدى المضرجة بالدماء ، ويحيى أهل دمشق ونضالهم الذى يجسم عزتهم وكرامتهم بل كرامة الشرق كله وعزته .

ومنذ سنة ١٩١١ كان الليبيون يقودون حركة مقاومة عنيفة ضد إيطاليا ، وسعرت مقاومتهم الثورةُ المصرية لسنة ١٩١٩ وما تبعها من لهب ظل شواظه متقداً ، حتى إذا كانت سنة ١٩٣١ قاد بطل طرابلس الخالد عمر المختار المقاومة ، وأحالها إلى مقاومة مسلحة ، وظل يقاتل الطليان ويصارعهم حتى تمكنوا من القبض عليه وأعدموه شنقاً ، وارتكبوا فى إعدامه طرقاً بشعة متوحشة ، وكان لذلك رنة غضب وسخط بعيدة المدى فى البلاد العربية ، عبر عنها شوقى فى رثائه محاولا أن يثير الشعب الليبي لقهر الباغين الظالمين :

رَكَزوا رفاتك فى الرمال لواءً ... يَسْتَنْهِضُ الوادى صباحَ مساءَ

ياويحهم نصبوا منارًا من دمٍ ... يوحى إلى جيل الغد البغضاءَ

جُرْحٌ يصيح على المدى وضحيَّةٌ ... تتلمَّس الحريَّةَ الحمراءَ

يأيُّها السيف المجرَّد بالفَلا ... يكسو السيوف على الزمان مضاءَ

فى ذمة الله الكريم وحفظه ... جسدٌ ببَرْقةَ وُسِّدَ الصحراءَ

وهو يقول إن العدو ألقى بجثمان عمر المختار من حالق إلى الرمال ،

وكأنما نصب به لواء يستثير به عزيمة الليبيين كي يقتصوا منه ، ويباويجهم ، بل لقد رفعوه أمام أعين الليبيين مناراً يقطر دماً ، ولابد أن يثأروا له يوماً . وإنه بلجرح فى الصميم يصرخ فى أعماقهم أن يلتمسوا الحرية التى لا تتحقق إلا بالتضحيات والدماء تسيل أنهاراً، ويخاطب عمر المختار قائلا إنه سيظل فى ثراه سيفاً مسلولا يملأ سيوف مواطنيه مضاء وعزيمة ، ويقول فى ذمة الله وحفظه هذا الجسد الطاهر الموسد فى تراب الصحراء .

وتظل مصر تقاوم الإنجليز مقاومة عنيفة ، وعبثاً يحاولون تشديد قبضتهم على البلاد ، إذ كانت دائمة الثورة عليهم ، حتى إذا كانت سنة ١٩٣٥ تزايد العنف شدة، وسقط بعض الطلاب صرعى رصاص العدو الغادر ونيرانه ، واضطر الإنجليز إلى إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وكانت بدورها مثل تصريح ٢٨ من فبراير تقوم على دفاع إنجلترا عن مصر فى حالة الحرب وتقديم مصر لها موانيها وطرق مواصلاتها ومطاراتها كي تستخدمها كما تشاء ، وكأنما الدماء التى سالت أنهاراً ذهبت هباء.

ولا نصل إلى هذا التاريخ حتى ترتفع مقاومة عرب فلسطين ضد الصهيونية والإنجليز إلى الذروة ، وكان وايزمان زعيم الفكرة الصهيونية قد حصل فى سنة ١٩١٧ على وعد بلفور الذى تعهد به الإنجليز الآثمون أن يكفلوا للصهيونيين وطناً قومياً فى فلسطين ، ووضعت الحرب الأولى أوزارها ، وثبت البريطانيون فيها أقدامهم باسم الانتداب ، وجعلوا على رأس إدارتهم لها مندوباً سامياً يهودياً، أخذ يشجع هجرة اليهود إلى فلسطين . وتنبه العرب الفلسطينيون إلى ما بيت لهم ، فأخذوا يثورون على الانتداب البريطانى ووعد بلفور منذ سنة ١٩٢٠ ،ولكن الاستعمار

والصهيونية مضيا فى مؤامرتهما الدنيئة ، فأنشئت وكالة يهودية بفلسطين لتنظيم الهجرة ، واحتل اليهود مدن الساحل الفلسطينى ، وأنشأوا بلدة تل أبيب بجوار يافا وجعلوها مقراً لوكالتهم ، ولم يلبثوا أن شكلوا جماعات إرهابية عسكرية ، والفلسطينيون يزداد إحساسهم كل يوم باستفحال الخطر ، وتزداد مقاومتهم له، ويؤيدهم العالم العربى ، غير أن حكوماته كانت لا تستطيع أن تقدم لهم شيئاً ، فقد كانت موزعة بين النفوذ البريطانى والفرنسى والإيطالى ، وكانت مشغولة بمشاكلها، فلم تستطع أن تقدم لعرب فلسطين أى عون ، وظلوا وحدهم يقاومون الاستعمار البريطانى والصهيونية اليهودية ، حتى إذا كانت سنة ١٩٣٦ تحولت مقاومتهم إلى ثورة عسكرية مسلحة ، دمرت كثيراً من المنشآت العسكرية البريطانية . ونصب الإنجليز مدافعهم يحصدون زهرات الشباب اليانعة ، كما نصبوا سجونهم ومحاكمهم العسكرية لا فى هذه السنة فقط بل منذ العقد الثالث من هذا القرن ، والشباب يستبسل فى مقاومته باذلا مهجه وأرواحه الغالية فداء عزيزاً لوطنه المقدس . وتتجسم فى أثناء ذلك بطولات رائعة ، لعل إبراهيم طوقان شاعر فلسطين خير من صورها ، وتتلاحق فى ديوانه صفحات هذا التصوير ، ومن أروع ما نظمه قصيدته فى تصوير الفلسطينى الذى يحمل روحه على راحته فداء لوطنه ، وفيها يقول :

هو بالباب واقفٌ والرَّدَى منه خائفٌ

فاهدئى ياعواصفُ خجلا من جراءته

صامتٌ لو تكلما لَفظ النار والدما
قل لمن عاب صَمْته خُلق الحزم أبْكَمَا
وأخو الحزم لم تزل يده تسبق الفما

وهو يقول إن الفدائى لا يهاب الردى، بل الردى هو الذى يهابه ويهاب جراءته وشجاعته التى تشبه إعصاراً ملتهباً ، وإنه ليطرق رأسه مصمماً على القتل والفداء لا يتكلم ، ولو تكلم لكان كلامه ناراً ودماء . إنه لا يهمه الكلام إنما يهمه العمل والنفوذ إلى غايته المثلى من التضحية والقتل والقتال . وظنت بريطانيا أنها تستطيع وقف المقاومة الفلسطينية بوضع مشروع تقسيم لفلسطين فى سنة ١٩٣٧ ولكن العرب الفلسطينيين ازدادت مقاومتهم واتسع نطاق المعارك ، فاضطرت بريطانيا إلى إعلان تخليها عن مبدأ التقسيم الأثيم .

وقد توقفت الحركات الثورية العربية فى فلسطين وغير فلسطين مع نشوب الحرب العالمية الثانية إلا ما كان من حركة رشيد الكيلانى فى العراق لسنة ١٩٤١ على أنها سرعان ما أخفقت ، وكأنما كانت البلاد العربية تنتظر نتيجة الحروب ، حتى إذا انتهت أخذ كل بلد يعد العدة للانقضاض على المستعمر وطرده من البلاد ، وأول بلدين تحقق لهما ذلك سوريا ولبنان ، وكانت فرنسا قد أعلنت استقلالهما فى سنة ١٩٤١ مراوغة وكسباً للوقت ، حتى إذا كانت سنة ١٩٤٦ نالتا استقلالهما وردت إليهما حريتهما المفقودة ثمرة بجهادهما المحتدم . ومضت العراق تكافح الإنجليز ، ويسول لهم شيطانهم فى سنة ١٩٤٨ عقد معاهدة معها ، ويثور الشباب

ويسلط الإنجليز عليه نيرانهم ورصاصهم ، ويسقط فى الثورة كثير من الشهداء ، وينوه الجواهرى ببطولتهم فى إحدى قصائده مصوراً للشباب العراقى الخطوب التى تنتظره فى طريق النضال ، يقول :

يوم الشهيد طريق كل مناضلٍ وعْرٌ ولا نُصُبٌ ولا أعلامُ

فى كل منعطفٍ تلوح بليّة وبكل مفترقٍ يدبُّ حِمام

وحياض موت تلتقى جنباتها وعلى الحياض من الوفود زحام

يوم الشهيد بك النفوس تفتحتْ

وَعْياً كما تتفتح الأكمام

حملوا الرصاص على الصدور وأوغلوا

فعلى الصدور من الدماء وِسام

وهو يصور هذا اليوم الممتد فى جميع أقطار العالم العربى ، يوم نضال الشهيد حتى الموت ، ويقول إنه يوم وعر مسالكه ، فى كل منعطف وكل مفترقه طريق يقف الموت ، والشباب يتزاحم على حياضه . وإنه ليوم العروبة الذى تفتحت فيه الآمال تفتح الأكمام عن الأزهار ، والشباب يعرض صدوره للرصاص ، وتسيل الدماء أوسمة مجد وعزة وحرية وكرامة . وكانت مصر قد انتفضت بدورها وأخذ الشباب ينزل بالجيش المحتل فى القتال خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات ، ويزلزل الأرض من تحت أقدامه زلزالا .

وأخذت الصهيونية فى أثناء الحرب العالمية الثانية تنشط فى الولايات المتحدة مستغلة تنافس الحزبين الديمقراطى والجمهورى فى الحملة الانتخابية ، مما دفع ترومان إلى إصدار بيان دعا فيه إلى فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية ، واستطاع الصهيونيون أن يؤسسوا قوة عسكرية كبيرة تابعة للوكالة اليهودية . وفى سنة ١٩٤٤ قامت الجامعة العربية ، واهتم ميثاقها بمشكلة فلسطين ، وسرعان ما قررت مقاطعة يهود فلسطين اقتصاديا ، وحاولت جاهدة استثارة الضمير الأمريكى والإنجليزى فى استشعار حقوق عرب فلسطين ولكن دون جدوى . وأخذت بريطانيا تعمل على خداع العرب ، فتخلت عن القضية لهيئة الأمم وقدمت فى سنة ١٩٤٧ لجنة دولية للهيئة تقريراً يقترح تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية . وأثار هذا الاقتراح الذى وافقت عليه هيئة الأمم ثائرة الأمة العربية ، فنشبت المظاهرات فى القاهرة وغيرها من دول العرب الكبرى وكوّن عرب فلسطين جيش التحرير العربى ، وأعلن الصهيونيون قيام دولتهم اليهودية : إسرائيل . وأصبح الفلسطينيون وجهاً لوجه أمام الإرهاب الصهيونى ، وناضل عرب فلسطين منذ أول سنة ١٩٤٨ نضالا دموياً محتدماً عاونهم فيه أفواج جيش الإنقاذ الذى دُرِّب فى سوريا ومتطوعون كثيرون من الأقطار العربية . ووضع الإنجليز أيديهم فى أيدى اليهود ، فجلوا عن تل أبيب والمناطق اليهودية ليستولى الصهيونيون على المطارات والمرافق العسكرية ، على حين ظلوا يحتلون المناطق العربية ، وهجم اليهود على الفلاحين فى قرية دير ياسين وذبحوا من أهلها الوادعين مئات وكذلك فتكوا بقرية ناصر الدين ، وتوالت الفظائع الصهيودية الوحشية

فهاج الرأى العربى العام وطالب حكوماته بالتدخل العسكرى لإنقاذ فلسطين . ودخلت الجيوش العربية الديار الفلسطينية وتقدمت فى جميع الميادين على الرغم من أنها لم تكن كاملة الإعداد ولاتامة التنظيم ، وبادر مجلس الأمن بمساعى الولايات المتحدة وإنجلترا إلى الانعقاد وأعلن وقف القتال وقيام هدنة بين الطرفين . وانتهز الصهيونيون الفرصة للاستعداد وتعزيز قوتهم الحربية ، وعاد مجلس الأمن للنظر فى مشروع تقسيم جديد لفلسطين بين العرب واليهود ورفضه عرب فلسطين والجامعة العربية ، واستؤنف القتال فى شهر يولية ١٩٤٨ بكل الجبهات ، وانتصر العرب فى كثير من المواقع ، غير أن القوة الأردنية انسحبت من بلدتى اللد والرملة فاحتلهما اليهود ، وأحدثوا فيهما مجزرة وحشية هائلة ، وانسحبت فى أثناء ذلك القوة العراقية ، وكذلك انسحب جيش الإنقاذ فى الشمال ، واستولى اليهود على صفد والناصرية ، وكثر اللاجئون والمشردون عن ديارهم وأوطانهم ، وركزت القوات اليهودية حملتها على القوات المصرية لإجلائها عن النقب غير أنها صمدت فى مواقعها صموداً مشرفاً ، ولم يلبث مجلس الأمن أن قرر وقف القتال فى ١٥ من يولية لسنة ١٩٤٨ . وظلت القوات المصرية تستبسل فى المقاومة إلى أن وافقت مصر على الهدنة فى أوائل سنة ١٩٤٩ .

وكان عرب فلسطين فى كل هذه المعارك يكافحون اليهود ويقاومونهم ويقدمون أرواحهم ودماءهم لوطنهم ضاربين أروع الأمثلة فى الجهاد والنضال ، من مثل عبد القادر الحسينى شهيد القسطل الذى طالما دوخ اليهود بمن كانوا معه من الفدائيين ، وأنزل بهم ضربات قاصمة .

وكان من بين هؤلاء الأبطال الفلسطينيين شعراء غذوا الثورة ببطولتهم الحربية وأشعارهم الحماسية ، مثل عبد الرحيم محمود الذى كان يعمل بالتدريس فى فلسطين ثم فى العراق، حتى إذا كانت سنة ١٩٤٨ لبى داعى الجهاد ملتحقاً بجيش الإنقاذ ، ومازال يخوض مع العدو المعارك وهو يتغنى بالأشعار المثيرة، حتى سقط فى معركة الشجرة بجبال الخليل كاتباً بدمه على ثرى وطنه الحبيب أروع قصيدة مؤثرة، محققاً بذلك ما تمناه فى بعض قصائده من استشهاده فى سبيل بلاده ، يقول :

أرى مقتلى دون حق السليب ودون بلادى هو المبتغى
يلذ لأذنى سماع الصليل ويبهج نفسى مسيل الدما
وجسم تجندل فوق الهضاب تناوشه جارحات الفلا
كسا دمه الأرض بالأرجوان وأثقل بالعطر ريح الصبا
وعفر منه بهى الجبين ولكن عفاراً يزيد البها
لعمرك هذا ممات الرجال ومن رام موتاً شريفاً فذا

وهو يتمنى أن يقتل ويسفك دمه دفاعاً عن حقوق بلاده السليبة ، وقد أصبح يستشعر فى قوة غريزة الثأر وحب الدم المسفوح والتشفى برؤيته حتى ليفرحه صليل السلاح ومسيل الدماء ، وأن يرى من حوله الشهداء وقد تناثرت أشلاؤهم وتناهبتها نسور السماء ووحوش الأرض ، وسالت دماؤهم القانية وتناهبت رياح الصبا عطورها ، وتعفر جبينهم البهى بالتراب عفاراً يزيد فى بهائه وجماله ، فذلك فى رأيه هو الموت الشريف موت الرجال الأحرار .

وكان الشعب المصرى يعانى من الحكم الفاسد ومن الأحزاب ، التى داست كرامة الوطن فى سبيل المآرب العاجلة ، والتى مضت تكمم الأفواه وتحد من الحرية ممكنة لحواشى قصر عابدين من التغلغل فى الحكم ، مترامية على حواشى قصر الدوبارة الإنجليز ، متغافلة عن مطالب الأمة فى الاستقلال والحياة الحرة الكريمة . ويبلغ الحنق الذروة وتموج الصدور بالحفيظة ، وإذا ثورتنا المجيدة تنبثق فى ٢٣ من يولية لسنة ١٩٥٢ معبرة عن إرادة الشعب ، ويتهاوى فاروق والأحزاب الفاسدة والاستغلال والإقطاع ، وتُـرد إلى الشعب حريته ، ويتخذ الأسباب لحياة اشتراكية سليمة ، ويتغنى شعراء مصر بالثورة مبتهجين من مثل قول عباس العقاد :

أهلا بنيروزٍ وليدْ أهلا بميلادٍ سعيدْ
يوم جديد قلتُ بل عهد على مصر جديدْ
عهد تصان كرامة فيه وتتبعها جهود
لا تستذلّ ولا تُسا م على الهوى سوم العبيدْ
ما كان غير الصالحـ ين لهم قرار فى الوجود
مصر الكنانة كعبةٌ قَرَّت على حصنٍ وطيد

والعقاد يتمثل الثورة عيداً كأعياد النيروز أو بعبارة أخرى كأعياد الربيع ، وإنه لميلاد حياة جديدة وعهد مشرق باسم تصان فيه كرامة مصر التى طالما أهدرها القصر والإنجليز والحكام الفاسدون ، عهد تتحرر فيه من الذل والهوا والعبودية . ويقول إنه لن يعيش بمصر بعد الآن

سوى العاملين النافعين ، وإنها لخليقة بحياة كريمة ، إنها كعبة مقدسة ، وقد استقرت على أسس وطيدة .

وكان الجيش البريطاني فى سنة ١٩٣٩ قد اقتحم ليبيا ، ولم يلبث الإنجليز أن قسموها مع فرنسا وأمريكا إلى ثلاث مناطق ، لكل منهم منطقة ، فللإنجليز برقة وطرابلس ولفرنسا فزان ولأمريكا بعض القواعد الجوية فى طرابلس . ومازالت ليبيا بعد الحرب تناضل من أجل استقلالها حتى إذا كانت سنة ١٩٥٥ جلت فرنسا عن فزان ، وبقيت لأمريكا وإنجلترا بعض القواعد الجوية ، وانعقد أمل الشعب العربي الشقيق على الخلاص من هذه الاغلال إلى أن قامت ثورة الفاتح فى سبتمبر لسنة ١٩٦٩ ، فردت إلى الشعب حريته ، محطمة كل ما كبله به الاستعمار الآثم من أغلال ، ومحققة له كل ما كان يطمح إليه من حياة عزيزة كريمة .

وإذا التفتنا إلى أقصى الشمال الإفريقي وجدنا الملك محمداً الخامس يقود شعبه لنضال فرنسا نضالا عنيفاً ، عن طريق المظاهرات والتجمعات والمقالات النارية فى الصحف والخطب الملتهبة ، وكانت له مواقف عظيمة ضد الاستعمار الفرنسي جعلت العدو ينفيه عن دياره ، وثارت البلاد ثورة ضارية فاضطرت فرنسا إلى أن تعيده إلى وطنه ، وأن تعطى المغرب استقلاله سنة ١٩٥٢ إذ أخفقت فى كل ما اتخذته من وسائل القمع والإرهاب . ونلتقى فى أثناء هذا النضال بشعر كثير يستنهض الشعب للمقاومة والثورة على العدو الغاصب من مثل قول محمد الجندى :

عن يميني وعن شمالى قيود وأمامى جيل معنّى شريد

يتلاشى مع الزمان ويفنى ويعانى ما لا يعانى العبيد

ضربه السدّ حوله ورماه بسهام الردى رقيبٌ عتيد

وكأن المغير أمضى عقوداً مع هذا الزمان ليست تبيد

وكأن الشباب منا هباء ونفوس الأحرار شيء زهيد

وهو يصور القيود والأغلال التى وضعها المحتل الغادر حول الشعب واغتصابه لطيبات أرضه ، حتى غدت أفراده فى ديارها مشردة تعانى من رق العبودية ، وقد ضرب من حولها نطاقاً . ومايزال يرميها بسهام الموت وكأنما عاهده الدهر عهداً لا ينتهى أن يظل مسيطراً متحكماً ، وكأن الشباب ليس شيئاً مذكوراً ، وكأن نفوس الأحرار لا قيمة لها ولا وزن .

ومن قديم كانت تونس تجاهد فرنسا جهاداً مستميتاً ، وتغنى جهادها وآلامها شاعرها المبدع الشابى ، وله أشعار كثيرة يصوبها حراباً مسمومة إلى صدر المستعمر الغاشم ، مستنهضاً همم شعبه لكفاحه ، مستثيراً حميته من مثل قوله الدائر على كل لسان :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدَرْ

ولا بد لليل أن ينجلى ولا بد للقَيْد أن ينكسر

ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخّر فى جوِّها واندثر

كذلك قالت لىَ الكائنات وحدَّثنى روحها المستتر

ودمدمت الريح بين الفجاج وفوق الجبال وتحت الشجر

إذا ما طمحت إلى غايةٍ لبستُ المنى وخلعتُ الحذر
ولم أتخوّف وعور الشِّعاب ولا كبَّة اللهب المستعر
ومن لا يحب صعود الجبالِ يعِش أبد الدهر بين الحُفَر

والشابي يقول إن الحياة الحرة إرادة ، والشعب لا ينالها إلا إذا صحت إرادته على أن يحياها ، وحينئذ ينزل القدر على إرادته المصممة ، فينجلي الليل الكثيف وينجاب سواده عن الأفق وتتحطم القيود والأغلال ، ويقول إن من لم يحس الحياة إحساساً متعمقاً يصبح فيها هباء لا اسم له ولا ذكر . ويصيح : هكذا حدثته الكائنات هامسة فى وعيه ، بل إن الريح لتدمدم بذلك وتزمجر فى كل مكان قائلة إنها إذا ما طمحت إلى غاية وضعتها نصب عينها مصممة على الظفر بها نافضة عنها كل خوف وحذر ، فلا الشعاب الوعرة تخافها ولا دفعة النار الملتهبة تصدها . وتلك سنة الحياة ، كل شخص وإرادته وعزيمته وهمته ، فمن لم يحب تسنم القمم وارتقاء الذرى عاش فى الحفر ومهاوى الحياة عيشة الذليل المهين .

وتمضى ثورتنا المجيدة فى بناء حياتنا المصرية الاشتراكية ، وتعلن حرباً شعواء على المستعمر الغاصب لديارنا منذ سنة ١٨٨٢ وتصمم على إجلائه ، ويجلو خانعاً عن بلدنا ، فيتحقق أمل عظيم ، بل حلم رائع ، طالما حلم به الشعب . ويصبح يوم هذا الجلاء عيداً عظيما من أعيادنا ، ويلحقه عيد ثان هو عيد تأميم قناة السويس ، وتجزع إنجلترا وفرنسا وعميلتهما إسرائيل ويهجمون هجومهم الغادر على بور سعيد لسنة ١٩٥٦ ويهب أهلها

شيباً وشباناً ونساء للنضال ، وسرعان ما ينزلون بالأعداء صواعق غضبهم ويترنحون من هول الضربات واللطمات المميتة التى كالها لهم أبطال بور سعيد . وما يلبثون أن يجمعوا فلولهم ويولوا الأدبار إلى غير مآب ، إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وقد ركبهم الاندحار والذل والعار .

وكان الشعراء فى هذه الأثناء يرمونهم بشواظ أشعارهم الملتهب من مثل « دع سمائى فسمائى محرقة » لكمال عبد الحليم ، ونشيد « أنا النيل مقبرة للغزاة » لمحمود حسن اسماعيل ونشيد « الله أكبر فوق كيد المعتدى » لعبد الله شمس الدين . وهى أناشيد تصور ثبات المصريين فى المعركة حتى الموت ، وحتى يعصفوا بالأعداء ويذيقوهم وبال عدوانهم الأثيم . ونظم كثير من الشعراء قصائد تصور هزيمة الأعداء الساحقة ورحيل أشباحهم الدنسة عن البلاد ، والعار يجللهم ، فقد جاءوا يكشرون عن أنيابهم الحداد ، فحطمناها تحطيما باستبسالنا وذيادنا عن وطننا ذياداً بذلنا فيه المهج فداء له ولحريته وعزته . حق فى يدنا وقوة فى نفوسنا مزقنا بهما العدو تمزيقاً ، وكان أول تمزيق مميت له ما ألحقناه بجنود المظلات أو بعبارة أخرى ما ألحقته بور سعيد بهم ، فقد قنصت سربهم الأول وأتت عليه ، واستدارت للغزاة اللئام تحصد رءوسهم حصداً ، وكأنما كانت شباكاً كبيرة لا يلبثون أن يتعثروا فى خيوطها ويصادوا صيداً ويذبحوا ذبحاً . وذلك تاريخ مصر ، مقبرة دائماً للغزاة على مر العصور لما يحرس حدودها وأطرافها من أبنائها الشجعان الأبطال . وصاح فى وجوه الأعداء كثير من شعراء البلاد العربية ، يضرمون حفيظة الشعب ويلهبون نضاله تارة بالقصيدة وتارة بالشعر الحر الجديد على

شاكلة منظومة نزار قبانى التى وضعها فى شكل رسائل من جندى مصرى إلى أبيه أرسلها من ميدان المعركة حيث تمتزج البطولة بالجراح وبالسلاح، وتمضى رسالته الثالثة على هذا النمط :

الآن أفنينا فلول الهابطين
أبتاه لو شاهدتهم يتساقطون
وترى قراصنة البحار الإنكليز
كثمار مشمشةٍ عجوز
يتساقطون . . . يتأرجحون
تحت المظلات الطعينة مثل مشنوق تدلَّى فى سكون
وبنادق الشعب العظيم تصيدهم زرق العيون
لم يبق فلاحٌ على محراثه إلا وجاء
لم يبق سكين ولا فأس ولا حجر على كتف الطريق
إلا وجاء
ليرد قطاع الطريق
ليخط حرفاً واحداً حرفاً بمعركة البقاء

والرسالة تعلن فناء الهابطين من المظلات والأسطول الإنجليزى وهم يتساقطون كأوراق الخريف وبنادق الشعب تحصدهم فى الأرض

كما تحصدهم فى الجو ، الشعب المصمم ذو الإرادة الجبارة الذى لم يبق منه فلاح إلا وجاء ، ولم يبق عند مصرى سكين . ولا فأس ولا حجر إلا استخدمه فى المعركة العنيفة، ليرد قطاع الطريق ويسحق ضلوعهم سحقاً ، وليخط حرفاً مضيئاً منيراً فى معركة البقاء .

وظل العراق محتلا بالإنجليز الغاشمين إلى أن قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٨ ثم ثورة فبراير سنة ١٩٦٣ فنفض عنه الاحتلال وأخذ فى بناء حياته بناء مستقلا ، إذ ردت عليه حريته وسيادته. وكان البركان الجزائرى قد تفجر منذ سنة ١٩٥٤ وأخذ يقذف بحممه وسيوله فى وجوه المستعمر الفرنسى وجنوده يشويها شياً ، بل لقد أخذ يحرقهم فى أتونه حرقاً ، وامتد الحرق والشى ، ولهيب البركان يزداد كل يوم أواره ، والمستعمر يجن جنونه ويرسل بالجيوش تلو الجيوش ، ويجرع أمر غصص الحرب والقتال، وكأنما تحولت الجزائر إلى مقبرة كبيرة لهم ، بل إلى جحيم يأتى عليهم جماعات وأفرادا ، وأبطال الجزائر ثابتون مستبسلون قد أرخصوا حياتهم وبذلوها ليحققوا لوطنهم استقلاله وسيادته المهدرة . ولا نصل إلى سنة ١٩٦٢ حتى تنهد قوى البغى والعدوان ، ولا يجد المستعمر أمامه سوى الاستسلام ، فيرد صاغراً إلى الجزائر حريتها واستقلالها ، ويخرج منها مهزوماً مدحوراً إلى غير رجعة . وكان شعراء الجزائر يضرمون لهب هذا النضال المجيد بأشعار حماسية نارية من مثل قول محمد الصالح على لسان ثائر :

يا رفاق فى الذرى فى السجن فى القبر وفى آلام جوعى

يا جنون الثورة الحمراء يجتاح كيانى ومغارات ربوعى

أقسمتْ أمي بقيدى بجروحي سوف لاتمسح من عيني دموعى
أقسمت أن تغسل الجرح وتغدو شعلة تضرم أحقاد الجموع

وهو ينادى رفاقه فى المعركة الممتدة إلى ذرى الجبال وفى أيام سجنه وعذابه كي يضربوا العدو الضربة القاضية ، وينادى جنون الثورة الدامية الذى يجرى فى كل كيانه وفى كل مغارات بلاده حتى يثأر لكرامة الوطن السليبة . ويقول إن أمه أقسمت بمقدسات أبطال المعركة وابتساماتهم ،أقسمت بقيودهم وآلامهم وجروحهم ،أن لا تمسح من عينه الدموع، وأن تغسل الجرح الدامى مستبشرة ، وتتحول بدورها مثل كل جزائرية إلى شعلة تلهب أحقاد الشباب . ويرتفع صوت شعراء العرب فى كل قطر محمسين الجزائريين وموقدين حميتهم مهددين المستعمر ومتوعدين منذرين من مثل قول الجواهرى شاعر العراق :

دعى شَفراتِ سيوف الطغاة تطبِّق منك على المقطع
فأنشودة المجد ما وُقِّعتْ على غير أوردةٍ قُطَّعِ
وخَلِّ النفوس العِذاب الصِّلاب تسيل على الأَسل الشُّرَّع
فساريةُ العلَم المستقلِّ بغير يد الموت لم ترفع
جزائرُ يا جَدث الغاصب ينَ بوركتِ فى الموت من مربع
جزائرُ كيلى بصاعىْ حقود عَمٍ فى ضراوته مقذعِ

والجواهرى يريد للجزائر أن تقدِّم على مذبح الحرية نفسها لتنوشها

السيوف ، ولتحيل بعض أبنائها أشلاء ، فالأمم لا تنال المجد إلا إذا قدّمت للقتل أفلاذ أكبادها ، وسالت دماؤهم المملوءة قوة وصلابة على أسنة السيوف والرماح ، فعلى أشلائهم وبرك دمائهم ترتفع سارية العلم المستقل الظافر . ويهتف بالجزائر أنها تحولت قبراً كبيراً للفرنسيين الغاصبين ، وهى تكيل لهم الصاع صاعين ، صاعى حقود عمّ فى ضراوته ، يطعن ، فيصمى ، يميناً وشمالا . وتنتصر الجزائر وتأخذ فى بناء حياتها الحرة الاشتراكية الجديدة .

وتدور بالعرب الأيام حتى يونيه سنة ١٩٦٧ وتعتدى إسرائيل على مصر والأردن وسوريا والحماسة تبلغ الذروة ، وكل عربى يؤمن بالنصر واسترداد الوطن المقدس الذى اغتصبه الصهيونيون . وارتفع صياح الشعراء يحمسون ويؤججون لهيب النضال فى نفوس المحاربين بعد أن رفض الشعب العربى بكل قوته الهزيمة مصمماً منذ التاسع من يونيو أن يمحو آثار العدوان محواً ، وفى ذلك يقول محمود حسن إسماعيل :

سيظل يَنْهَشُ فى عروقىَ ثارُها   حتى تكبِّر للصباح ديارُها

حتى يُداهمها الضُّحى بيمينه   وبها يُفَكُّ من القيود إسارُها

حتى يهلِّل فرحةً شهداؤُها   للنور ، يحمل فَجْره أحرارُها

حتى تزمجر بالفيالق حوْمَةٌ   عربيَّةٌ لا يستريح أُوارها

حتى يبيد الغاصبون بأرضها   وتبيد فوق رفاتهم أوزارها

فالشاعر موتور لفلسطين ، ويقول إنه سيظل يأكل حقد الثأر عروقه ،

حتى تتألق بشائر الصباح المشرق بالنصر الحاسم فى أرضها ، وتترامى أضواء ضحاه فى جنبات ديارها ، وشعلة الحرية تحرق قيودها بين تهليل الشهداء وفرحهم بالنور الغامر الذى فجّره أحرار العروبة الأباة ، وفيالقهم وكتائبهم تزأر وتزمجر مدمرةً للغاصبين الآثمين وقاضيةً قضاء مبرماً على أوزارهم وآثامهم وماحية لها ولهم من الوجود محواً .

وراحت إسرائيل تتبجح بانتصارها ومعروف أن انتصاراً فى معركة أو معارك أو حتى فى حرب لا يعنى فرض تاريخ جديد على منطقة وشعبها الكبير ، بل لابد لهذا الشعب من الانتصار الحاسم . وانتهزت إسرائيل الفرصة فمضت تتحدث عن التسوية والمفاوضات المباشرة متعامية عما يؤدى إليه ذلك من كارثة القبول بالوجود الصهيونى والاعتراف بكيان إسرائيل السياسى وسيادتها الإقليمية . وإن العرب فى كل بلد لمصممون على مقاومة مخططات إسرائيل والصهيونيين والمضى فى الحرب والقتال ، حتى ينتزعوا من أيديهم قهراً ما سلبوه واغتصبوه . وقد عُرضت القضية على الأمم المتحدة غير أنها أدخلتها فى متاهات وسراديب تبعث القلق وتدعو إلى الحذر ، واستقر فى نفوس العرب أن الحق المسلوب لا يرده إلا أهله .

ومن التطورات العظيمة التى حدثت بعد النكسة أن عرب فلسطين اضطلعوا بالقضية فعادت إلى أيديهم ، وسرعان ما تبلورت فى أعمال المقاومة العسكرية التى ينهض بها الفدائيون البسلاء ، مما جعل إسرائيل تستغيث من حين إلى حين بمجلس الأمن باكية مولولة معبرة عن الذعر والهلع الذى يصبه فى نفسها الفدائيون الفلسطينيون ، وقد جاءوها

من الأردن ومن كل فجٍّ يحملون فى قلوبهم غضباً كألسنة النار على من نهبوا أرض الآباء والأجداد وأخرجوا أهلها من ديارهم إلى العراء، حيث لا مأوى لهم سوى البؤس والضنك والتشرد، بعد أن حولوا بعض القرى إلى مجازر وحشية كقرية دير ياسين وقرية كفر قاسم، وقرى أخرى محوها من الوجود كقرية زيته وقرية عمواس.

ويالالهول المروع! إنها قصة الوطن المسلوب ودم أهله المسفوك وطرد المتبقين ليصبحوا لاجئين مشردين يعيشون فى الخيام، أو إذا استطاعوا، فى أكواخ من اللبن كالخرابات المهجورة، حتى يجفوا وتذوى أعوادهم، وكأنما يريدون لهم أن يعيشوا بدون حياة أمواتاً، فراشهم الرمل ولحافهم السماء. ومن ظلوا معهم ولم يهاجروا بعد سنة ١٩٤٨ سخروهم فى أعمالهم بأجور زهيدة، حتى يستكينوا ويذلوا، وكل من حاول أن يقف فى طريقهم دون ثمار أرضه وطيباتها مزقوه إرباً، أو ألقوه فى غياهب السجون. وظنوا أنهم يقضون بذلك على الروح العربية، وخاب ظنهم وفألهم، فقد دقت ساعة القصاص، وهب الجيل الفلسطينى الجديد الذى عاش المحنة غريباً عن دياره، هب بعد نكبة سنة ١٩٦٧ ليرد كيد العدو فى نحره، وقد صمم على الثأر لأهله ووطنه المباح حتى تترنح إسرائيل فى برك من الدم وتستسلم خانعة متخاذلة. ومما يهز نفس كل عربى أن الجيل الفلسطينى، الذى نشأ أسيراً فى إسرائيل يجوع ويعرى ويعذب فى زنزانات السجون أشنع ألوان التعذيب، ظل صامداً لا يذل ولا يهون، بل لقد مضى يقاوم ويتحدى منتصب القامة مرفوع الهامة، يتقدمه صف مرصوص من الشعراء يهدر ويزمجر، كسيل من النار، بل

كلهب عاصف يدوى ويدمدم غاضباً لوطنه وثائراً مع الثوار فى كل بلد على الاستعمار ، مع ثوار الجزائر وثوار العراق واليمن وكوبا ، ومع ثورة مصر وجلاء الغاصب والسد العالى ومعركة بور سعيد . ويعنف بهم الصهيونيون ويزجون بهم فى السجون ، ويظلون يقاومون فى إصرار هائل وهم فى القيود والسلاسل لا يبالون ولا يهابون ، بل كل يوم يزدادون غضباً وحمية وحقداً ومرارة ، فلا غرابة أن تستحيل أشعارهم نيراناً ملتهبة مستعرة على نحو ما نقرأ فى أشعار توفيق زياد وسميح القاسم ومحمود درويش ، ولأولهم منظومة بعد الخامس من شهر يونية سنة ١٩٦٧ يقول فيها :

يا بلادى أمس لم نَطْفُ على حفنة ماء

ولذا لن نغرق الساعة فى حفنة ماء

من هنا مروا إلى الشرق غماماً أسودا

يطئُون الزهر والأطفال والقمح وحبات النَّدَى

وينضّون عداوات وحقداً وقبوراً ومُدى

من هنا سوف يعودون وإن طال المدى

لا تقولوا لى انتصرنا

إن هذا النصر شر من هزيمه

نحن لا ننظر للسطح ولكنا نرى عمق الجريمه

إننا للمرة الألف نقول :

لا وحق الضوء

من هذا التراب الحر لن نفقد ذره

إننا لن ننحنى للنار والفولاذ يوماً قيد شعره

كَبْوة هذى وكم

يحدث أن يكبو الهمام

إنها للخلف كانت خطوة

من أجل عَشْرٍ للأَمام

وزياد يقول لبلاده لا تيأسى لم نغرق بعد قيام إسرائيل فى سنة ١٩٤٨ ولن نغرق فى سنة ١٩٦٧ وكيف نغرق فى حفنة ماء ؟ ! لقد مروا بديارنا غماماً مظلماً يطئون كل ما فيه ويسيلون عداء وحقداً وموتاً وخناجر مسمومة ، ولكنهم سيعودون مدحورين مهزومين وإن طال الزمن . ويتجه للصهيونيين قائلا : لا تصيحوا انتصرنا فإن نصركم فى حقيقته هزيمة بل شر من هزيمة ، لما وراءه من دوافع الجريمة ، وسنظل نصرخ مقسمين بالضياء الباهر أننا لن نفقد ذرة من تراب أرضنا الحر ، ولن نطأطئ الرأس للنار والحديد ، إنها كبوة وقد يكبو الهمام ، وإن كانت خطوة للخلف فإنها استعداد لقفزة تبلغ عشر خطوات إلى الأمام .

ويصدر سميح القاسم عن هذا الصمود العاتى فى منظومته عن الفدائى ، وفيها يهتف ، وقد استشهد فدائى بإحدى المعارك :

خَلّوا القتيل مكفَّناً بثيابه
خلوه فى السفح الخبير بما به
هل تسمعون ؟ دعوه نسراً دميا
بين الصخور يغيب عن أحبابه
خلوه تحت الشمس تحضن وجهه
ريح مطيّبة بأرض شبابه
وعلى السهول الصفر رجع ندائه
يا آبهاً بالموت لست بآبه

خذنى إلى بيتى
أرخ خدى على أعتابه
وأبوس مقبض بابه
خذنى إلى كرم أموت ملوّعا
ما لم أُكحّل ناظرى بترابه
يا من ورائى لا تخونوا موعدى
هذى شرايينى
خذوها وانسجوا منها

بيارق نسلنا المتمرد

وسميح يطلب إلى الرفاق أن يدّعوا الشهيد مكفناً بثيابه المضرّجة بالدماء ، وأن يدعوه فى السفح نسراً دامياً بين الصخور يغيب عن رفاقه ، ولا يواروا جثمانه ، بل يتركوه فى العراء تحت الشمس تعانق وجهه الرياح المحملة بشذى أرض شبابه ، ومن تحته السهول المحزونة يتردد فيها صدى ندائه الحار : إننى لا آبه بالموت ، فقد مت كما أريد وفى المكان الذى اخترت ، وكل مُناى أن أودع بيتى الوداع الأخير وأريح خدى على أعتابه وأقبل مقبض بابه وأكحل ناظرى بكرمه وترابه . وتجلجل منه صيحة : يا من ورائى من الرفاق وفّوا بالوعود والعهود ، وهذه شرايينى خذوها وانسجوا منها بيارق أبنائنا حتى ينشأوا ثائرين ، بل حتى يصبحوا فدائيين يسحقون الصهيونيين سحقاً ، بل حتى يصبحوا أدوات دموية تدمرهم تدميراً ، وتفرُّ فلولهم من جحيم الموت فراراً رهيباً .

وبنفس هذه الروح المتمردة العاتية ينسج محمود درويش منظوماته التى كتبها بعد النكسة ، مجسداً فيها الصمود للعدو والثبات فى المعركة حتى يوم النصر القريب ، مردداً أن الهزيمة جرح يضاف إلى الجرح القديم ، جرح لابد أن يعقبه الانتقام ، وأن الهزيمة لا تعنى الاستسلام ، بل تعنى النفوذ من لهيبها ألسنة نار تندلع على رءوس العدو وتحطمها حطماً ، وإنه ليصيح من أعماقه :

خسرت حلماً جميلاً

خسرت لسع الزنابق

وكان ليلى طويلا

على سياج الحدائق

وما خسرت السبيلا

فكل ما فى النكسة أنه خسر حلماً بالقضاء على إسرائيل فى سنة ١٩٦٧ قضاء مبرماً ، وخسر ما كان ينبغى أن ينزل بالصهيونيين من بروق الموت وصواعقه ، وكان قد طال الظلام الداجى الذى مدّه على الوطن الحبيب عشرين عاماً ، وهو ينتظر بفارغ الصبر ساعة النصر الحاسم ، ولكن ذلك كله لم يكسر نفسه فقد بقيت لها قوتها وصلابتها ، إذ السبيل لتحقيق الحلم الرائع لايزال مفتوحاً . وقد اشتعلت فى نفوس أبناء عرب فلسطين ، بل فى نفوس العرب جميعاً حفدة الأبطال الذين فتحوا العالم وأخضعوه لسلطانهم ، نار الغضب ، وإن لهيبها ليتعالى على أيدى الفدائيين وفى كل بلد عربى . وما ارتفاع ألوية الثورة التحررية فى السودان وليبيا الشقيقين وتصفية القواعد الأجنبية فى العظم وهويلس إلا إرهاص عظيم بالنصر ، وإن بشائره لتدق من الخليج إلى المحيط .

الفهرس

	صفحة
مقدمة	٥ —٧
(١) معنى البطولة	٩ —١٦
(٢) فى الجاهلية	١٧ —٣١
(٣) فى الإسلام	٣٢ —٥٥
(٤) فى الحروب مع الروم	٥٦ —٨٢
(٥) فى الحروب الصليبية والمغولية	٨٣ —١٠٨
(٦) فى معارك التحرير	١٠٩—١٥٩

رقم الإيداع	١٩٨٤ / ٣١٢٨
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧—٠٢—٠٨٦٠—٤

١ / ٨٣ / ١٧٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

